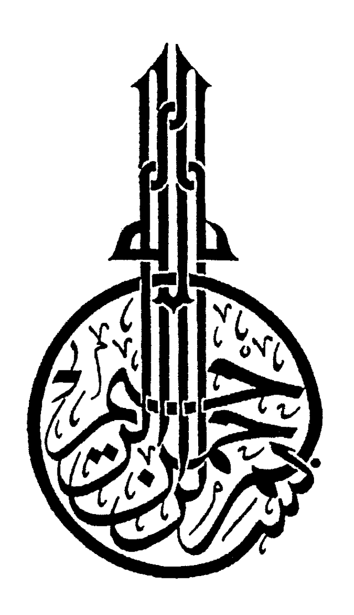
نشأت جعفر

العمل في الإسلام

الضرورة المهدرة



العمل في الإسلام

الضرورة المهدرة

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

رقم الإيداع بدار الكتب ١٨٠٣٣ / ٢٠٠٣

القاهرة : تليفون ٦٣٢٩٠٠٠ - ٦٣٨٥٥٣٧

تقديم

يحدد القرآن الكريم للإنسان هدفين من وراء الإنعام عليه بنعمة الحياة الكبرى، أحدهما العبادة لله وحده لا شريك لــه

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1]،

والآخر هو العمل اليدوى الإعمارى الإنتاجي التنموى الذى يضــيف القيمــة ويستخرج المنفعة

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[2]

وهذا هو معنى ﴿استعمركم﴾. وموضوع كتابنا هذا هو «العمل» كما اراه فى الإسلام.

افتتح الله جل وعلا الوحى على نبيه الكــريم ﷺ بكلمــة ﴿ٱقْرَأْ﴾[3] ثــم اردف ذلك قائلاً:

﴿ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[4]

«الكتابة» هى أحد معانى «علم بالقلم» ، وبذلك يكــون الطلــب الافتتــاحى والواجب الأول على الإنسان من جانب الوحى القرآنى هو «تعلــم القــراءة والكتابة»، ولا يخفى على فطنه كل إنسان أن عملية تعلم القراءة والكتابة هى نوع من أنواع «العمل».

---

١) (٥٦) الذاريات.
٢) (٦١) هود.
٣) (١) العلق.
٤) (١-٥) العلق.

يستغرق «العمل» من أجل التعلم من الإنسان الفرد ذكراً كان أم أنثى ما يقارب التسعة عشر عاماً (عامان فى رياض الأطفال، ثم ستة أعوام دراسة ابتدائية، يعقبها أعوام ثلاث للدراسة الاعدادية، ومثلهم للدراسة الثانوية، ثم تستلزم الدراسة الجامعية ما بين أربعة وستة أعوام). تمثل هذه الفترة الزمنية اللازمة للتعلم حتى نهاية المستوى الجامعى – والتى تقترب من العشرين عاماً – ما يوازى ربع متوسط عمر الإنسان فى العالم المتقدم، بما يعنى أن الإنسان يقضى ربع عمره فى «العمل» (التعليم) الذى يؤهله لمرحلة أخرى من «العمل» فى أحد أفرع الحياة، وإذا استمر إلى سن التقاعد الرسمية يكون قد وصل إلى الستين عاماً من عمره أو إلى الخامسة والستين فى بعض البلاد وبعض التخصصات.

ما سبق يعنى أن العمل يستقضى من الإنسان ما يتجاوز الستين عاماً من عمره وهى سنوات تفوق حتى متوسط العمر للإنسان فى الدول النامية والفقيرة.

وإذا كان «العمل» (التعلم) من أجل «العمل» (ما نسميه فى لغتنا العامية «الشغل») من الأهمية والحيوية والأولية فى غاية إلى الدرجة التى وصلت إلى أن الله فى علاه أقسم قائلاً:

﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ .

اقسم الحق تبارك وتعالى بالقلم (إداة الكتابة) وأيضاً بالكتابة ذاتها (ما يسطرون) لعظمهما، والقراءة والكتابة هما «عمل» فى نهاية الأمر. طلب العلم هو «عمل»، ومن البديهى أن العلم يطلب من أجل «العمل» به فى الواقع المعيش من أجل السعادة والقوة والرفاه لذلك جاء في الأثر «اطلبوا العلم ولو فى الصين»[٥].

أربعة من أركان الإسلام الخمس (الصلاة والزكاة وصوم رمضان

---

٥) قول مأثور

والحج)، تستلزم الكثير من «العمل». تتطلب الصلاة إقامة المساجد والمعرفة الوثيقة بالفلك لتحديد أوقات الصلاة، وبالجغرافيا لتحديد القبلة، كما تستلزم توصيل المرافق للوضوء، وتفرض الزكاة معرفة علم الحساب والفقه الإسلامى والعمل» الدؤوب للحصول على المال الحلال الذى يفيض عن الحاجة ويصل إلى النصاب ويحول عليه الحول من أجل استيفائها، وكذلك الأمر بالنسبة للصوم والحج.

نواميس الحق تبارك وتعالى فى كونه، وكذلك ثروات الطبيعة السخية تجدها مخفاة تحت غلاله رقيقه ولا تعرض نفسها بشكل مكشوف وممجوج، وتنتظر من الإنسان «العمل» على رفع هذه الغلالة ليحصل على المنفعة، ولا وجود لوسيلة لفعل ذلك إلا «العمل».

العمل يحفظ الدين، ويحفظ الحياة والعقل والنسل، ويحفظ المال بل هو الوسيلة الوحيدة التى عليها إجماع البشرية فى الشرعية والشرف والقبول. لذلك فلا رائحة للمجاز فى القول بأن العمل هو الحياة، أو القول بأن الغاية من الحياة هى العمل.

إذا كان العمل هو كل ذلك وغيره، فهل لدينا فقه (بمعناه اللغوى وهو الفهم) للعمل ، وهل لدينا فقه (بمعناه الاصطلاحى وهو استخراج أدلة الأحكام من مصادر الشرع) للعمل ؟

أرجو أن يساهم « عملى » هذا فى بيان هذا الأمر ...

نشأت جعفر

مصر الجديدة

١١ شعبان ١٤٢٤هـ

٧ أكتوبر ٢٠٠٣م



الفصل الأول
واجب العمل

أ- الإسلام والإنسان

الغائية والتكليف - الثنائية - الوسطية

الكون فى المنظور الإسلامى مخلوق لغاية وليس لعباً أو لهواً

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴾[1]،

والله هو خالق كل شىء، وهو خالق الكون، فللكون بداية ونهاية

﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾[2]،

﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[3].

الإنسان خلق أيضاً لغاية، وليس على سبيل العبث، وهو راجع إلى ربه فى يوم لا ريب فيه

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾[4]،

وتكليف الإنسان قائم على أساس استحقاقه للخلافة عن الله فى أرضه

﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[5]

فالخلافة مسئولية يتحتم على الإنسان القيام بحقها تجاه ربه، وتجـاه الكـون والأرض والطبيعة، وتجاه جنسه من البشر، وتجاه باقى المخلوقات والكائنات

---

1) (٣٨) الدخان.
2) (١٠٤) الأنبياء.
3) (١١) الروم.
4) (١١٥) المؤمنون.
5) (٣٠) البقرة.

التى تعيش معه فى كنف هذه الطبيعة. المسئولية تقتضى سلطة، وأدوات السلطة للإنسان تكمن فى تسخير كل قوى الطبيعة ومخلوقاتها له، وفى امتلاك الإنسان للقوى التى تيسر له إمضاء سلطة التسخير «كلٌ ميسرٌ لما خُلق له»[1].

الإنسان ثنائى التركيب من روح وجسد، قدمه على الأرض ورأسه فى السماء، يعمل فى الدنيا على أمل الخلود فى الاخرة، يعشق الصدق ويجيد الكذب، يرتوى بالمادة ويجف إذا منع عنه المعنوى، لذلك جاءته وسطية الإسلام. الوسطية فى الإسلام لا تعنى إمساك العصا من الوسط، ولا تعنى «إنعدام الموقف الواضح والمحدد أمام المشكلات لأنها هى الموقف الأصعب»[2]. الوسطية الإسلامية تعنى "العدل" لهذا كان قول الرسول ﷺ: «الوسط: العدل. جعلناكم أمة وسطا»[3]. الوسط موقف مغاير وجديد لكنه غير منبت الصلة عن الطرفين والنقيضين، «فالكرم – وهو وسط – ليس غريباً تماماً عن القطبين النقيضين: (الشح) و(الإسراف)، وإنما هو جامع منهما سمات ومكونات هذا الموقف الجديد (الكرم). إنه جامع (التدبير) و(للبذل والعطاء)»[4]. الوسط هو الإبصار بالعينين لذلك فالوسطية «كموقف ثالث وجديد، إنما يتمثل تميزها، وتتمثل جدتها فى أنها تجمع وتؤلف ما يمكن جمعه من السمات والقسمات الموجودة فى القطبين النقيضين كليهما وهى لذلك وسطية (جامعة)»[5].

كذلك جاء التكليف للإنسان ثنائياً، بالعبادة

---

١) صحيح البخاري: حديث ٧٣٨٥.
٢) فى المنهج الإسلامى. د/ محمد عمارة. المعهد العالى للفكر الإسلامى. سلسلة المنهجية الإسلامية. (٤) صـ٥٣.
٣) رواه الإمام أحمد.
٤) فى المنهج الإسلامى مرجع سابق، صـ٥٢، ٥٣.
٥) المرجع السابق، صـ٥٢.

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1]،

وأيضاً بالعمل التنموى الإعمارى

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[2]،

لأن (استعمركم) تعنى: طلب منكم الإعمار والتنمية. التكليف بالعبادة والعمل، وتعنى الوسطية هنا (العدل)، العدل فى العبادة والعمل، لا تغلب العبادة العمل حيث يقول النبى ﷺ «إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق»[3]، ولا يجور العمل على العبادة

﴿ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[4]،

ويقول الحق تبارك وتعالى أيضاً

﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ﴾[5].

وإذا كان التكليف يقتضى بداهة (الاستطاعة)، فبدون الاستطاعة يسقط التكليف ويفقد المعنى والمضمون، لذلك قيل «إذا أردت أن تطاع، فمر بما يستطاع»، فصدور التكليف بالعبادة والعمل يستلزم عقلاً أن العبادة والعمل فى وسع الإنسان وطاقته وقدرته. وإذا كانت العبادات قد حظيت بإهتمام الفكر الإسلامى بما لا يسمح بأى مزيد، فإن العمل هو ما ينبغى إلقاء مزيد من الضوء على أهميته فى فكر الإسلام، وإلقاء مزيد من الضوء على احتياجه (العمل) إلى بناء فقه له يعادل ما للعبادة من فقه فى هذا الفكر، مما حدا بأحد الفضلاء إلى القول «وإذا كان أحد أبرز المقاصد المتناسلة من الاستخلاف هى

---

١) (٥٦) الذاريات.
٢) (٦١) هود.
٣) رواه الإمام أحمد.
٤) (٩) المنافقون.
٥) (١١) الجمعة.

الأمانة والمسئولية، فإن التعبير عن امتثالهما لا يتحقق إلا بتوظيف الطاقات المذخورة فى الفرد، والإفادة منها إلى أقصى ما تحتمل وتطيق، وليس المطلوب التوظيف كيفما اتفق وإنما فى اتجاه محدد ومطلوب شرعاً وهو العمران والتنمية»[1]، إنه يقول إن الانصياع إلى المقاصد المرجوة من استخلاف الإنسان فى الأرض يتطلب اكتشاف وتوجيه وتنظيم إمكانيات الإنسان الفرد للاستفادة القصوى منها فى العمل الإعماري التنموي، ويستطرد قائلاً «والسفه الذى يُرمى به المرء الخارج عن الضوابط العقلانية فى تصرفاته المالية، وفق التعبيرات الفقهية المعهودة، لا يتوقف وصف الإنسان به ضمن هذه الدائرة الضيقة، وإنما نرى تعميمه على كل من يهدر جهداً أو طاقة أو إمكاناً فى غير محله وبطريقة اعتباطية. وإذا كانت عقلنه الطاقات وتثميرها مطلوباً، فإن العمل على كشفها وتنميتها هما كذلك، ولازمه أن يكون التعطيل والإعاقة وتشتيت القدرات محرماً للاعتبارات عينها»[2]. إذا كان السفه فى التصرفات المالية والثروة الخاصة حراماً، فإن تبديد الطاقة والعافية فى غير العمل التنموي الإعماري يستلزم الحرمة أيضاً، ولذلك يقول عالم آخر «من حيث أن العمل سنة الله فى خلقه، فإن إلتزام الفرد به يصل إلى مرتبة من التكليف لا ترقى إليها أوامر الإلزام، بمعنى أن قعود الإنسان عن العمل لا يعتبر مجرد معصية تعود بالضرر على من يقع فيها وحده، أو تعود عليه هو وعياله، أو تنعكس أثارها فى ذلك على المجتمع كله... نقول بأن القعود عن طلب الرزق لا يقف عند هذا الحد، بل يتعداه إلى خرق الناموس، وتعطيل جزئية هامة من جهاز الإنتاج الذى يكفل بقاء الجنس، وتحقيق العمران»[3].

---

١) نحو تأسيس فقه للتنمية والعمران فى ضوء المنهج المقاصدى. حسن جابر، مقالة جريدة الحياة.

٢) المقالة السابقة.

٣) العمل فى الإسلام د. عيسى عبده/ أحمد إسماعيل يحيى، دار المعارف، صـ١٥، ١٩٨٣.

هل يحمل القول بأن القعود عن العمل، أو عدم توافر فرص العمل، أو عدم إتاحة العمل للراغبين والقادرين رغم توفره، يعنى تهديداً لكل الجنس البشرى قدراً كبيراً أو حتى صغيراً من المبالغة والتعسف؟. أستطيع أن أزعم بصحة ودقة وعدل مقولة أن وجود بشر لا يعملون، ولا يجدون فرص العمل، أو يحال بينهم وبين هذه الفرص بشكل أو بآخر، كما أن عدم الارتفاع بالتكليف بالعمل إلى ما يعلو عن الحق وصولاً إلى الواجب، وإلى ما يعلو عن الإلزام هو تهديد لكل البشرية، ذلك لأن شعوباً كاملة فى وقتنا الحالى مثل معظم شعوب قارة أفريقيا - على سبيل المثال- والتى حرمت من فرص العمل والتعليم والتدريب، كما أنها وعلى الرغم من وجود ثروات هائلة من المواد الأولية داخل أراضيها، لا تملك الحد الأدنى من البنية الأساسية - لأسباب مختلفة ومعروفة - اللازمة للمساعدة على توفير فرص العمل، أصبحت هذه الدول الآن من أخطر مصادر التهديدات للأمن القومى للدول الغنية والمتقدمة، ذات القوى النووية والجيوش الجبارة، ويتصدر ذلك التهديد كل الأبحاث والنشرات الاستراتيجية التى تتعلق بأمن هذه الدول الغنية والعظمى، وشملت هذه التهديدات ما أصبحت هذه الدول الفقيرة تصدره إلى العالم الأول من ما يسمى بالإرهاب، والأمراض الفتاكة مثل الإيدز والايبولا وحمى غرب النيل... إضافة إلى الهجرة غير الشرعية، وما يترتب عليها من نتائج تهدد بنيان مجتمعات دول المهجر، ناهيك عن تصدير المخدرات والرقيق الأبيض والأسود والجريمة... البشر الذين لا يعملون أو لا يجدون العمل، أو يمنعون من العمل، هم فى الحقيقة القاطرة التى لا تعطل فقط المسيرة الإنسانية، بل هم أيضاً - يجرونها إلى الوراء، بما يقدمونه من وقود للحروب الإقليمية، والتطهير العرقى (رواندا - بوروندى - الكونغو) وما يستتبعه ذلك من تدمير للبيئة (تصحر - تدمير الغابات - تلويث مصادر المياه...)، وأخيراً وليس آخراً الإرهاب بدلالاته الحقيقية والمصطنعة.

هل نحتاج إلى مزيد للتدليل على واجب العمل؟.

وعلى حيوية وأهمية بناء فقه إسلامى للعمل؟.

ب- مفهوم الحياة فى الإسلام

الحياة خلقت للعمل:

الحياة هى أكبر الهبات الإلهية للإنسان، فلا توجد نعمة أكبـر مـن أن يخرج الإنسان من العدم إلى الوجود، أن يكون إنساناً نعمة لا يضاهيها نعمة، أن ينعم بالحياة بحلوها ومرها، بنزواتها وشهواتها، بتجاربها وخبراتها، بقوتها وضعفها، بتساميها وهبوطها، بعواطفها وعقلانيتها، وأن ينعم بما فيهـا مـن أسرار تعجز الكلمات عن الإحاطة بها أو وصفها، إختصه الله بها بدلاً من أن يكون عدماً أو خالياً منها بمعنى من المعانى، هى نعمة أكبر من كل تقـدير. الحياة هى رأسمال الإنسان الحقيقى بدون أى مجاز، لذلك أحاطها الله بسـياج محكم من الحماية والتوقير والتقديس والإحترام، فلا يحق لأحـد أن يعتـدى عليها بغير حق، فذلك هو عدوان على الإنسانية جمعاء

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (1)،

والعكس أيضاً صحيح

﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ ﴾ (2)

كما أن هذه النعمة ليست ملكاً خالصاً للإنسان الذى وهبت له، فحيث لا يحـق له الإعتداء على حياة الآخر، لا يحق له بالمثل الاعتداء على حياته هو نفسه، أن يسلبها من نفسه

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾(3)،

---

1) (32) المائدة.

2) (32) المائدة.

3) (29) النساء.

ويقول الرسول ﷺ: «من قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده (يتوجأ)[*١] بها فى بطنه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن قتل نفسه بسم، فسمه فى يده يتحساه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً. ومن تردى من جبل فقتل نفسه، فهو متردٍ فى نار جهنم، خالداً مخلداً فيها أبداً»[٢]. بل حتى لا يجوز للإنسان أن يتمنى الموت وفى ذلك عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه، فإن كان لابد فاعلاً فليقل: اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى»[٣]، كما لا يحق لأحد الاعتداء على حياة من هم داخل نطاق مسئوليته اعتقاداً منه أنه يحميهم من صعوبة ومشقة هذه الحياة بحسب ظنه، ونتيجة لشدة حبه لهم وتعلقة بهم

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ ﴾[٤]

وأيضاً:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ ﴾[٥]

لذلك شرع القصاص فى القتل حماية للحياة الإنسانية.

هذه الحياة المقدسة والمحاطة بسياج إلهى من الحماية والرعاية وهى أحد الأطوار التى يمر بها الإنسان فى الطريق التصاعدى لتكامله فى رحلته إلى لقاء خالقة

﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾[٦]

---

١ *) يتوجأ: يضرب بها نفسه.
٢) رواه أبو هريرة.
٣) متفق عليه.
٤) (١٥١) الأنعام.
٥) (٣١) الإسراء.
٦) (١٣، ١٤) نوح.

لأى غرض جعلت ووهبت وحفظت؟ يقول الحق تبارك وتعالى

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[1]،

إذن الحياة قد خلقت للعمل. وقياساً على القول السائد «إن الإنسان يأكل ليحيا، لا يحيا ليأكل»، نقول إن الآية تخبرنا «أن الإنسان يحيا ليعمل، لا يعمل لكى يحيا» العمل هو السبب وراء أن وهبنا الله نعمة الحياة التى لا تعادلها نعمة. هذه فى زعمى هى إحدى جوانب رؤية الإسلام للعمل.

والمفارقة هنا فى زعمى هذا بأن العمل هو المغزى الكامن وراء الحياة، تتضح فى أنه يمثل فى نفس الوقت فى أحد أشكاله وهى (السعى على الرزق) ضرورة لإستمرار الحياة، فبدون السعى على الرزق تذوى وتنتهى الحياة، وإذا اعتبرنا أن المحافظة على الحياه والحرص على سلامتها وحمايتها هى من الواجب، وإذا سلمنا بأن مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب، يصبح العمل واجباً لحتميته وضرورته فى المحافظة على الحياه تنفيذاً لأوامر الحق تبارك وتعالى كما أسلفنا، وهنا يمكن القول بأن «طلب الرزق بالعمل المنتج هو حق لله وحق للعباد، وحق الله غالب فيه على حق كل فرد»[2].

ماذا يعنى ذلك؟ يلزمنا إيضاح تعريف «حق الله»، و«حق العباد»، لنفهم العبارة السابقة.

حق الله: «هو ما تعلق به النفع العام للجماعة البشرية ولم يختص بواحد من الناس، ونسب إلى الله مع تنزهه سبحانه وتعالى عن أن ينتفع بشىء ما، تعظيماً لشأنه (هذا الحق)، وتنويهاً بخطره فى المجتمع»[3].

حق العباد: «ما تعلق به نفع خاص لواحد معين من الناس، وأضيف إلى العبد لظهور اختصاصه به»[4].

---

١) (٢) الملك.
٢) العمل فى الإسلام – مرجع سابق، صـ١٦.
٣) الإسلام عقيدة وشريعة – محمود شلتوت، ط١٣، دار الشروق، صـ٢٨٨.
٤) المرجع نفسه.

المعنى الآن: أن الحياة خلقت لأجل أن نعمل، وأن العمل يحفظ الحياة، وحفظ الحياة من أهم الواجبات، لأن القرآن نص على أن الاعتداء على حياة إنسان فرد – بغير حق – يمثل اعتداء على مجمل الجماعة البشرية فالحياة حق لله وللعباد، ويصبح العمل حق لله وللعباد.

العمل حق لله لتعلقه بالنفع العام للجماعة البشرية مما يعرب عن خطره في المجتمع، وحق للعباد لنفعه الخاص لكل شخص فى حفظ حياته.

ماذا يترتب على ما سبق؟ يترتب على ما سبق الآتى:

- أن طلب الرزق حق لله وحق للعباد، وحق الله غالب فيه على حق كل فرد.
- «لا يملك الفرد إهمال السعى على الرزق.
- لا يملك المجتمع أن يمنع الفرد عن طلب الرزق.
- لا يملك المجتمع أيضاً أن يقف من هذا الأمر (توفير العمل لأفراده) موقفاً سلبياً، أو إدعاء عدم المسئولية»[1].

الأمر يتعلق بقدسية وأولوية الحياة الإنسانية، فلا مجال لإنسحاب أو تنازل أو استتسلام أوتسليم.

وهنا يمكن فهم الحض القرآنى الذى لا ينقطع على طلب العمل، وأيضاً طلباً لجزئية السعى على الرزق

﴿ فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾[2]،

ويقول :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾[3]،

---

١) العمل فى الإسلام – مرجع سابق، صـ١٥.
٢) (١٥) الملك.
٣) (٣٢) الأعراف.

وأيضاً :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [1].

وقياساً على ما سبق، فيمكن تصور ما يمثله الاعتداء على حق الله وحق العباد فى العمل، أو بالأحرى الاعتداء على العمل الذى هو السبب فى أن وهبنا الله نعمة الخروج من العدم إلى الوجود، ونقصد بالاعتداء على هذا الحق البطالة أو القعود والتقاعس واهمال العمل على سبيل المثال. إتساقاً مع هذا المفهوم تعنى البطالة «عدوان على الحياة الفردية والإنسانية. البطالة تنشأ فى دائرة ضيقة مؤثرة على وجود الإنسان كإنسان، ثم تتسع لتشمل الأسرة فتفكك عراها، ويفقد العاطل سلطانه عليها، ومن ثم تنحدر الأسرة إلى مستويات من الفوضى والقطيعة»[2]، الأسرة لبنة المجتمع، والمجتمع لبنة الإنسانية ....

نستطيع الآن أن نؤكد أنه ليس فى القول بأن «العمل حياة» أى أثر للمجاز، بل هو قول صحيح حرفاً ومعنى، فالعمل هو سبب الحياة وهو ضرورة حياة، وإهماله هو عدوان على الحياة... الحياة الإنسانية بدون تجاوز ولا تعسف.

جـ - العمل غاية بقدر ما هو وسيلة:

إذا صح الزعم أن الحياة خلقت للعمل، يصبح العمل هو الغاية من النعمة الكبرى التى وهبها الله للإنسان، بإيجاده فى هذا الكون، والتفضل عليه بحرية الاختيار، وهنا يمكن أن نفهم الآية - رغم ورودها فى سياق الخطاب إلى المنافقين -

---

١) (١٠) الجمعة..

٢) العمل فى الإسلام - مرجع سابق، صـ٤١.

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[١]،

الأمر هنا فى هذه الآية هو على الإطلاق مما يعنى أن العمل غاية، والأمـر على الإطلاق يفيد الوجوب، ويقول القرآن أيضاً

﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾[٢]،

ويقول

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾[٣]،

العمل هو الغاية من وراء الحياة فى الكون.

«ويذهب عالم الاقتصاد الهندى مهروترا S.N. Mehrotra» إلى القول فى وصف العمل بأنه «ليس وسيلة للإنتاج، بل هو غاية فى حـد ذاتـه»[٤]. ويقول «برودون» وهو أحد أبرز علماء الاجتماع «إن العمل ما هو إلا قدرة الإنسان المنطقية تجاه العوامل المادية. فكل ما فى العالم وما فى الإنسان من قدرة على الإبداع تتمثل فى العمل»[٥]. فإذا كان الإبداع غاية، والابداع يتمثل فى العمل، فإن العمل غاية فى حد ذاته. والعمل أيضاً وسيله يقول بـرودون «وفيه (العمل) يبدو الفكر المعاصر الذى يبحث فى حاجـات الإنسـان مـن

١) (١٠٥) سورة التوبة.

٢) (٧) هود.

٣) (٧) الكهف.

4) Mehrotra S.N. Labour problems in India, C., Co New Delhi, 1985 p:2.
عن العمل وقضايا الصناعة فى الإسلام د. السيد حنفى عوض، المكتب العلمى للكومبيوتر، ١٩٩٦، صـ١٧.

٥) المرجع السابق، صـ١٦.

احتياجات تكنولوجية يسخرها لحضارته. والعمل لا يعدو أن يكون فى نفس الوقت وسيلة وأداة، ولهذا يتحتم إدارته كوسيلة، وتنظيمه كطريقة، واكتماله كأداة، ليكون الإبداع غايته، وهو أسمى ما ينشده الإنسان لحياته الاجتماعية»[1].

ويستطرد د. السيد حنفى عوض قائلاً «ونستطيع أن نلمس تأثير العمل فى ثلاث حاجيات أساسية من مطالب الإنسان:

أولاً: **الوجود**: وهو وظيفة اقتصادية.

ثانياً: **الإبداع**: وهو وظيفة نفسية.

ثالثاً: **التواصل**: وهو وظيفة اجتماعية.

والواقع أن النتائج السابقة للعمل ليست هى الغاية الإنسانية فحسب، وإنما أيضاً بقدر ما يقدمه هذا العمل من تفاعل بين العقل والمادة التى يغيّر من خصائصها وتركيبها ليرضى بها حاجته، ويبنى منها حضارته»[2].

ولا يوجد اجماع بين المفكرين فى كل النظم على شىء إلا العمل من ناحية القبول والمشروعية والإيجاب لذلك «ينظر إلى العمل على أنه مجهود إرادى يقوم به الإنسان، وهو لصيق بالإنسان، يجسده بقوته البدنية، بحيث لا يمكن الكلام عن العمل بدون العنصر الإنسانى، ولذلك فإن قيمة العمل من قيمة الإنسان ذاته... والعمل بالنسبة للغالبية العظمى من الناس هو المصدر الوحيد لمعيشتهم، والدخل الناتج عن العمل هو الدخل الوحيد الذى يقره جميع المفكرين بلا تحفظ»[3].

ويزيد مفكر آخر الأمر وضوحاً قائلاً: «إن عدد الأفراد الذين يعتمدون على العمل فى تدبير معاشهم، يزيد فى كل مجتمع على من عداهم من أفراد

---

١) المرجع السابق، صـ١٦.

٢) المرجع السابق، صـ١٦.

٣) العمل فى الإسلام وقضايا الصناعة – مرجع سابق، صـ٢٠.

يستمدون دخولهم من الريع والفائدة»[١]. ومن آراء اللورد ماينارد كينز (Maynard Keynes) «إن المستثمر الذى يقدم أمواله للصناعة والتجارة ويقعد عن السعى فى انتظار الثمرات الدورية تجيئة تباعاً، لا يعتبر عضواً عاملاً فى المجتمع، بل هو عضو أشل أو بدون وظيفة، وفى عبارة اللورد كينز قوله (The Functionaless Investor) أى المستثمر الذى لاوظيفة له»[٢].

بل ذهب بعض المسلمين إلى حد القول – وأنا أرى فيه بعض الغلو – بأن «الإسلام شرع قانون (من لا يعمل لا يأكل) مع ضمانات أكثر وإنسانية أعمق منذ قرون عديدة فحق الانتفاع بالأرض قائم على العمل[٣*]، ونستطيع أن نطبق هذا المبدأ على كافة شئون الحياة وأوجه العمل، وأى مال يكتسبه الإنسان دون عمل فعلى فهو حرام، ونستطيع أن نزداد فهماً لهذا المبدأ إذا رجعنا إلى المبدأ الرئيسى فى حق الانتفاع، فهو يقضى بأن لا ملكية بل انتفاع، ولا استثمار بل إنتاج، فالانتفاع هو ثمرة العمل، فكأن العمل هو الوسيلة الوحيدة للعيش، وهذا هو تفسير قوله تعالى

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾[٤].

ومن هذا المبدأ الجامع تتفرع مبادئ كثيرة جمعها الإسلام الحنيف فى مبدأ (تحريم الربا)، والربا هو الوصول إلى أى ربح دون عرق أو جهد، ومن هنا

---

١) العمل فى الإسلام – مرجع سابق، صـ٢٧.

٢) المرجع السابق، صـ٢٦.

٣) قال صلى الله عليه وسلم «لا حمى إلا حمى الله ورسوله» [سنن أبي داود] والحمى هو التملك بوضع اليد، كان يسمى قديما بالحمى أى أن يبسط أحد سلطانه على قطعة من الأرض ويعلن أنها فى حماه. وقال صلى الله عليه وسلم «من أعمر أرضاً ليست لأحد فهو أحق بها» [صحيح البخارى]، وقال أيضاً «ليس لمحتجر حق بعد ثلاث سنين» وذلك أن رجالاً كانوا يحتجرون من الأرض مالا يعمرون. والاحتجار وضع حجارة على حدود قطعة من الأرض بياناً لوضع اليد عليها» [الخراج،لأبى يوسف، ص ٧١].

٤) (٣٩) النجم.

فأى نوع من أنواع الاستغلال الشائعة حالياً حرام، أى كسب لا عمل فيه ولا جهد حرام، ومن هذا القبيل (أذون استيراد - الحصة فى التموين ومواد البناء - الاتجار فى العملة - خلو الرجل...)»[1] انتهى.

العمل غاية، والعمل وسيلة وأداة، والعمل شرعية واستحقاق، بل يمكن أن نزعم أن من «لا يعمل لا يحيا» بدون غلو ولا إفراط.

د- العبادة والعمل - أيهما أسبق؟

ليس المقصود بعنوان هذه الفقرة، التأكيد على أسبقية العمل على العبادة، إنما المقصود هو الإلتفات إلى الأهمية الهائلة التى يوليها الإسلام للعمل مما يجعله يمشى كتفاً بكتف مع العبادة إن لم يسبقها. وحيث أن العبادة حاضرة ومتربعة فى الوعى الإسلامى ولها الأولوية التى لا تنافس لزم التنوية عن أن العمل ينبغى له الحصول على مقعد مجاور للعبادة.

تعالوا نتابع بعض آيات من القرآن الكريم تتحدث عن المرحلة المبكرة جداً التى تلت خلق الإنسان (آدم وزوجه)، ووضعهما فى الجنة وفيها يحذر الله الإنسان من كيد إبليس، ويخبره بتبعات إطاعة نصائح إبليس، وبالتبعات المترتبة على إطاعة ابليس والخروج من الجنة، والهبوط إلى الأرض، وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا

---

١) الثورة الإيرانية - د. إبراهيم الدسوقى شتا - الزهراء للإعلام، جـ٢، صـ٢٣١.

سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[1].

والآن يمكن لنا سويا استخراج المعانى التالية من هذه الآيات الكريمة:

١- أن الحق تبارك وتعالى حذر الإنسان مسبقاً من أنه سيتعرض لمحاولات من الشيطان لإخراجه من الجنة.

٢- أوضح أن (الشقاء) هو النتيجة المترتبة على هذا الخروج.

٣- ربط (الشقاء) بالحصول على أربعة مطالب لتلبية احتياجات الإنسان وكانت هذه الاحتياجات متوفرة لآدم فى الجنة، وهى (الجوع) أى الطعام، (والعرى) أى الملابس (والظمأ) أى الماء، (والضحاء) أى التعرض والبروز للشمس بدون ساتر أى السكن.

٤- الآية فيما نعلم هى من أوائل التعريفات التى حددت المطالب الأساسية أو الاحتياجات المادية الأساسية للإنسان فى حياته وهى الطعام والكساء والماء والمسكن.

٥- «ربط الخصال الأربع (الحاجات المادية) بالشقاء يؤدى بنا إلى قاعدة أساسية تتلخص فى أن العمل هو السبيل الطبيعى للحصول على مورد يحفظ على الآدمى حياته»[2]. ولعل هذا المفهوم هو وراء الوعى الجمعى لأهلنا عندما يصفون السعى على أكل العيش بأنه «شقاء» وأن فلاناً «يشقى» أى يعمل بجد واجتهاد أو يعمل كثيراً.

---

١) الآيات (١١٦ - ١٢٣) سورة طه.

٢) العمل فى الإسلام - مرجع سابق، صـ١٢.

٦- ذكرت فى الآيات كلمة «تشقى» مرتين:

* الأولى هى فى وصف كيفية توفير الحاجات الأساسية أى كما قلنا أنه أحد جوانب (العمل).

* الشقاء فى الآية (١٢٣) جاء مقترنا بالضلال وصفاً لمن لا يتبع الهدى الذى سيأتى من الله، أى كنتيجة لعدم قبول عرض إيمانى يتعلق بمعتقد قلبى أو عبادة.

* يمكن هنا الوصول إلى نتيجة تقول بأن الشقاء على الحاجات الأساسية المادية هو «شقاء بدنى» ناتج عن المجهود المطلوب بذلة للحصول على هذه الحاجات، بينما الشقاء فى الآية (١٢٣) هو «شقاء نفسى» أو «شقاء معنوى» يتعلق بالإنسان من الداخل ومن الناحية النفسية والمعنوية.

* يفيد تسلسل الآيات أن التنبيه على العمل جاء أولاً، ثم تلاه التنبيه على ضرورة العبادة وإتباع الهدى.

ونحن فى غنى عن القول أن فى ذلك بيان عظيم على أهمية العمل وخطورة مكانته بجانب العبادة.

* ضرورة الشقاء للحصول على الحاجات الأساسية اللازمة للحفاظ على حياة الإنسان، تعنى حتمية الأجر أى المقابل المادى للشقاء أو العمل وهو الحصول على هذه الحاجات الأساسية لقاء العمل. وعن الأجر هناك الكثير من الآيات مثل

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[١]،

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[٢]،

---

١) (١٧١) آل عمران.

٢) (٩) المائدة.

﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾[1]،

ويقول الرسول ﷺ «أعط الأجير أجره قبل أن يجف عرقه»[2]. والأجر لقاء العمل من حق العامل وليس تفضلاً قياساً على قول الله جل وعلا

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾[3].

* يقتضى ما سبق أيضاً أن الأجر لابد له من أن يغطى إشباع الحاجات الأساسية على أقل تقدير، لوجوب المحافظة على الحياة ليس فقط لأنها الهبة العظمى من الله للإنسان، بل لحتميتها لاستمرار العمل الذى هو غاية الحياة كما أسلفنا، وهو الذى يرقى بها.

* العمل لابد أن يقترن به الإيمان والعبادة، لأن الشقاء الجسدى يمكن التغلب عليه بالراحة والنوم والترفيه والاستجمام، أما الشقاء النفسى والمعنوى عند الكفر وعدم الإيمان فعلاجه صعب، وقد يؤدى لزيادة الشقاء الجسدى بإضافة الأمراض العضوية والنفسية والعصبية مما يؤدى للإضرار بالقدرة على العمل.

لذلك جعل الإسلام «العمل يسمو على كل الفرائض فى تكفير الذنوب»، فقال صلى الله عليه وسلم: «إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها الصوم ولا الصلاة ولا الصدقة، ولكن يكفرها السعى على العيال»[4]، وقوله صلى الله عليه وسلم «مَنْ أَمْسَىٰ كَالاً مِنْ عَمَلِ يَدِه، أَمْسَىٰ مَغْفُوراً لَهُ»[5].

فلا حرج علينا فى الزعم بسبق العمل على العبادة، مع التنبيه بأن العمل بدون عبادة تفريط، وأن العبادة بدون عمل إفراط، وإهمال أحدهما يؤدى إلى

---

١) (٢٥) القصص.
٢) صحيح البخاري
٣) (٨) فصلت.
٤) العمل فى الإسلام – مرجع سابق، صـ٣٣.
٥) الترغيب والترهيب حديث ٢٦١٢.

سقوط معنى وفضل الاثنين، وإن الجمع بينهما هو «العدل» وهو «الوسـط» أى هو الإسلام.

كما أن العمل حتمى وضرورى للعبادة لأن السعى على الرزق والشقاء للحصول على الحاجات الأساسية، يؤدى إلى الحصول على الأجـر، الـذى يمكن من الحصول على الطعام والماء والملبس والمسكن، وبنـاء المسـجد، وتقوية البدن بإشباع حاجاته الحياتية، فيكتسب القدرة على أداء الفرائض، ومن القواعد الأصولية «**أن صحة الأبدان مقدمة على صحة الأديان**» وهـذا مـن البديهيات المركوزة فى العقل فلا تحتاج إلى برهان. كما أن خبراتنا الحياتيـة تقول: «أن الرغيف يحمى الحرية، وأن المدفع يحمى دور العبادة...».

العمل يحفظ العبادة، والعبادة تؤدى للعمل، والعمل عبادة بـنفس القـدر الذى به أن العبادة عمل.

هـ- التمكين فى القرآن الكريم:

يقول القرآن الكريم فى سورة الكهف:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾[١].

---

١) الآيات (٩٣ - ٩٧) سورة الكهف.

التمكين لغة من مكن: (مكّنه) الله من الشيء تمكينا وأمكنه.

وفلان لا(يمكنه) النهوض: أي لا يقدر عليه وتمكن واستمكن: أي ظَفِر.

فالتمكين هو: الظفر والقدرة.

تروى الآيات السابقة القصة التالية:

* أن «ذا القرنين» وهو (ملك صالح أعطى العلم والحكمة)[1] (والتمكين) وصل إلى مكان قوم وصفوا بأنهم لا يفهمون.

* ﴿ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

يأجوج ومأجوج قبيلتان من الناس، وإفسادهم فى الأرض قيل هو الظلم والقتل وسائر وجوه الإفساد.

* ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ﴾ أى ضريبة لك من أموالنا، ﴿ عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ أى ردماً حاجزاً بيننا وبينهم.

* قال ﴿ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى ﴾ ما بسطه الله لى من القدرة والملك «خير» من خرجكم.

ثم طلب منهم المعاونة فقال:

* ﴿ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ ﴾

أى برجال منكم يعملون بأيديهم، أو أعينونى بالآت البناء.

---

١) كلمات القرآن تفسير وبيان الشيخ حسنين مخلوف دار المعارف، صـ١٨. د. محمد سليمان الأشقر دار الفتح.
تفسير الآيات من نفحة العبير من زبدة التفسير، د. محمد سليمان الأشقر – دار الفتح للنشر والتوزيع، صـ٧٢٧- ٧٢٨.

• ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ والردم: هو السد.

• ﴿ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ﴾ أى قطع الحديد.

• ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ ﴾

والصدفان: جانبا الجبل، ومعنى الآية، أنهم أعطوه زبر الحديد، فجعل يبنى بها بين الجبلين حتى ساواهما.

• ﴿ قَالَ ٱنفُخُواْ ﴾

أى: قال للعمال: انفخوا على هذه الزبر بالكيران (الكيران: أدوات لنفخ الهواء).

• ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا ﴾

قيل: كان يأمر بوضع طاقة من الزبر والحجارة، يوقد عليها الفحم والحطب بالمنافخ حتى تحمى، والحديد إذا أوقد عليه صار كالنار المحمرة.

• ﴿ قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾:

ثم يؤتى بالنحاس المذاب فيفرغه على تلك الطاقة من زبر الحديد. والقطر هو النحاس المذاب.

• ﴿ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ ﴾

أى: فما استطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوا على ذلك الردم لارتفاعه وملاسته.

• ﴿ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾

أى: وما استطاعوا أن ينقبوه من أسفله لشدته وصلابته.

نلاحظ من الآيات السابقة وتفسيرها مايلى:

١- أن ذا القرنين وصف نفسه بالتمكين، عندما أجـــاب علـــى الطلـــب الموجه إليه ببناء السد.

٢- التمكين انعكس فى المعرفة الوثيقـــة بعناصـــر الإنتـــاج الأربعـــة (لمشروع بناء السد) وهى:

الأرض: موقع السد بين الصدفين.

رأس المال: نجعل لك خرجاً.

التنظيم: اعينونى... آتونى ... انفخوا.

العمل: من ناحية القوة العاملة

﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ﴾

ومن ناحية التقسيم الفنى للعمل: (أجعل بينكم وبينهم ردما - آتونى زبر الحديد - حتى إذا ساوى - انفخوا - جعله ناراً - آتونى افرغ....).

بحيث يمكن الزعم الآن أن كلمة «التمكين» بالمعنى القرآنى خلال هذه الآيات هى القدرة والظفر بالمعرفة الوثيقـــة بالعمـــل الإنتـــاجى وتفاصـــيله، وتقسيماته، وأساليبه، وأدواته، وخطواته، وتنظيمه، وإدارته وجودته الشاملة، وهو ما يطلق عليه العالم الصناعى المتقدم «حق المعرفة أو المعرفة الحقة أو سر الصنعة». التمكين هو - فى أحد معانيه القرآنية هنا - المعرفة الكيفيـــة العميقة بالإنتاج والتصنيع والتشييد والعمل بمجمل عناصرها للوصـــول إلـــى القيمة المضافة.

٣- نلاحظ وصف القوم الذين لا يحظون بمثل هذا التمكـــين أو حـــق المعرفة بوصف

﴿ لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ ....!!!

٤- الآيات هى من أقدم التوثيق فى قضيتى:.

- تقسيم العمل Job classification Breakdown & Description

- التقسيم الفنى للعمل Operation Planing.

وقد سبق أيضاً ابن خلدون كل المعاصرين فى هاتين القضيتين فى مقدمته عند الحديث عن أمهات الصنائع، وكذلك «الدمشقى» الذى بين أن: «حاجات الإنسان متعددة ومتوالدة وأنها تحتاج إلى العديد من الصناعات والأعمال التى لا يستطيع الفرد بمعزل عن غيره أن ينهض بها جميعاً، وإلا كان عليه أن يتعلم العديد من المهن والصناعات وذلك دونه الوقت المحدد للإنسان، ولذا ظهرت الحاجة إلى تقسيم العمل بحيث يذهب كل واحد بمهنة من المهن، وهو بذلك يشير إلى تقسيم العمل، بل لقد أشار إلى ما هو أبعد من ذلك علمياً فتكلم عما يعرف بالتقسيم الفنى للعمل، أى تقسيم العملية الإنتاجية إلى مراحلها وأجزائها المختلفة، وضرب لذلك مثلاً بصناعة الخبز، فهناك من يغربل الحب، ومن يطحنه، ومن ينخله، ومن يعجنه ومن يخبزه وتلك ما هى إلا أجزاء أو مراحل لعملية صنع الخبز»[1].

٥- التمكين فى العمل يؤدى إلى الرفاهية والقوة وإضافة القيمة، مما يمكن معه حماية العقيدة، وحماية حرية العبادة، وحماية الحرية السياسية والاقتصادية، والقيام بمسئولية الخلافة عن الله فى أرضه، والمسئولية تجاه خلقه وتجاه الكون وتجاه الطبيعة، وفى كلمة أخيره «العمل على إدخال قضاء الله كما يجب ويرضى، داخل المسيرة الإنسانية، والتاريخ الإنسانى على أرضه».

بذلك يصبح مفهوماً أن يسبق التمكين - بالمعنى الذى استخرجناه من قصة السد الذى بناه ذو القرنين - العبادة وأن يؤدى إليها ويحميها

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ

---

١) العمل وقضايا الصناعة فى الإسلام، مرجع سابق، صـ٢٥.

﴿وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[1]،

ثم تقوم العقيدة والعبادة بحماية الفرد والجماعة من تغول العمل، أو حماية الذات والآخر من طغيان العمل على الذات الفردية والشخصية الجمعية، ويتم ذلك فى جدلية تصاعدية تطورية تكاملية فى الطريق الطويل والخالد لمسيرة الإنسان إلى معرفة الله

﴿وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾[2].

ومن اللافت للنظر أن آية التمكين السابقة أتت عقب الإذن للمسلمين بالقتال عقب الاضطهاد الطويل من قريش، وعدوانها على حريتهم فى العقيدة، وطردهم من بلدهم فيقول القرآن

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[3].

التمكين فى العمل هو قوة وعزة وانتصار لكلمة الله وحماية للعقيدة وبدونه ينهدم الدين (الصوامع والبيع والمساجد)، ويذوى ذكر الله.

لقد احرزت النظم المادية التمكين (العمل والإنتاج والمعرفة والمعلوماتية والتكنولوجيا) لكنها لم تكمل الآية (إقامة الصلاة.... والأمر بالمعروف....) فعانت مما تعانى منه من خواء وعبثية وقنوط وفراغ روحى... أما المسلمون

---

١) الآية (٤١) سورة الحج.

٢) (٤١) الحج.

٣) الآيتين (٣٩ - ٤٠) الحج.

فلم يحرزوا التمكين لأنهم أهدروا العمل الإنتاجى والتنموى والإعمارى، وبالتالى فشلوا فى حماية العقيدة أو العبادة بالمعنى المطلوب، ناهيك عن قشرية العبادة، وسطحية المفاهيم المتعلقة بها، والتشديد والتنطع والتمسك بالهامشى، وترك الجوهرى على رغم التركيز والاهتمام البالغين بالجانب التعبدى، لذا فهم يعانون مما يعانون منه من تبعية وإحباط وانحطاط وتجاهل وتهميش، وتنميط وقولبة إعلاميين، وإتهام وعقاب جماعى، واستبعاد خارج المسيرة الإنسانية، بل وأيضاً خارج التاريخ.

العمل الإنتاجى والتنموى والإعمارى ضرورى لحماية العقيدة، بذات القدر الذى به العقيدة الصحيحة ضرورية لحماية العمل، وهذا من معانى

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾[1]،

وأيضاً

﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ ﴾[2]،

جناحان بدونهما أو بدون أحدهما لا يمكن التحليق فى سماء وسمو المنحة الكبرى للإنسان بالخلافة عن الله فى الأرض، وشرف العبودية له فاطر السماوات والأرض.

و- العمل هو العلة الأولى وراء مواهب الإنسان وثراء الطبيعة:

إتساقاً مع زعمنا أن الحياة خلقت للعمل - والعبادة بالطبع - لكننا معنيون هنا بالعمل وحده، نقول بأولوية العمل الذى من أجله خلقت الحياة، ثم أعطى الإنسان المواهب والقدرات والإمكانات الضرورية لأداء العمل وإتقانه، كذلك امتلأت الطبيعة بالثروات والكنوز والمنافع والمعايش ومصادر الرزق حيث أنها ميدان ومحل العمل.

---

١) (٢٩) الرعد.

٢) (١١٢) طه.

فى لقاء سيدنا موسى عليه وعلى نبينا السلام مع فرعون، سأله فرعون وهو الذى يدعى الألوهية عن ربه - رب موسى - قائلاً

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[1]

يقول التفسير فى ذلك: «أعطى كل شىء صورته وشكله الذى يطابق المنفعة المنوطة به، المطابقة له، كاليد للبطش، والرجل للمشى، واللسان للنطق، والعين للنظر، والأذن للسمع. وقيل: المعنى: أعطى خلقه كل شىء يحتاجون إليه، ويرتفقون (ينتفعون) به، (ثم هدى) هداهم إلى طرق الانتفاع بما أعطاهم فانتفعوا بكل شىء فيما خلق له»[2]. ويقول القرآن أيضاً فى وصف هذا الترتيب:

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾[3].

ويقول القرآن فى موضع آخر:

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾[4]،

التكليف يقتضى الإستطاعة، والإستطاعة تستلزم المواهب والإمكانات والقدرات الضرورية لأداء التكليف بالصورة المطلوبة، وعليه فإن العمل قد اقتضى الحياة، والحياة اقتضت الهداية والتقدير بزرع ومنح المواهب والقدرات والإمكانات لهذا الكائن الحى وهو الإنسان.

وحيث أن الطبيعة هى المجال الحيوى للعمل الإنتاجى التنموى

١) (٤٩، ٥٠) طه.

٢) نفحة العبير من زبدة التفسير ص،٧٥٦.

٣) (١- ٣) الأعلى.

٤) (٧) الطلاق.

الإعمارى، فقد حُشدت الطبيعة أيضاً بالثروات والإمكانات والطاقات والمنافع والمعايش وأسباب الرزق حيث يقول القرآن استكمالاً لما أوردناه من سورة الأعلى سابقاً:

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ﴾[1]،

حيث يحدثهم عن ثروة زراعية تهمهم لنمو الثروة الحيوانية، ويقول أيضاً:

﴿ وَمَن يُهَاجِرۡ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِى ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ ﴾[2]،

ويقول:

﴿ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ ﴾[3]،

والآية غاية فى الوضوح، ويكرر القول

﴿ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴾[4]،

الثروات مذخورة فى الطبيعة ليس للإنسان وحده، ولكن لكل الكائنات، وكل المطلوب هو العمل.

ولمزيد من فهم أن العمل إقتضى للإنسان المواهب والقدرات اللازمة لإنجاز العمل وإتقانه وأداء الرسالة المطلوبة يقول القرآن الكريم عن المهارة الفائقة والحرفية العالية لسيدنا داود عليه وعلى نبينا السلام فى صناعه الدروع من الحديد:

---

١) (٤) الأعلى.
٢) (١٠٠) النساء. مراغما: مهاجراً ومتحولاً ينتقل إليه، سعة: بسطة.
٣) (١٠) الأعراف.
٤) (٢٠) الحجر.

﴿ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ﴾[1].

يقول التفسير:

﴿ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴾

«أى جعلناه لينا يعمل به ما شاء، قيل: صار الحديد كالشمع يعمله من غير نار»[2]. وقد تعنى (النا له الحديد) الصهر بالنار. وأقول: قد يكون المعنى أن نبى الله داود عليه السلام قد بلغ من الحرفية العالية، والتمكين التام، والتدريب المستمر فى التعامل مع الحديد (أعمال الحدادة) ما جعله يعمل بيديه فى الحديد بمهارة فائقة وكأن الحديد أصبح بين أصابعه فى ليونة الشمع، كما نقول فى العامية عن الصانع الماهر (إن يده ينبغى أن تلف فى الحرير). أما قوله

﴿ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ ﴾

أى دروعاً تغطى البدن كله. وقوله

﴿ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ﴾

السرد: نسج الدروع ويقال: السرد والزرد، والمعنى (قدّر) أى «لا تعملها صغيرة فتضعف ولا يقدر الدّارع على الدفاع، ولا تعملها كبيرة فتثقل على لابسها»[3]. «التقدير» هنا هو: احكام الصنعة وجودتها وملاءمتها، فالنقص فى المنتج يؤدى إلى فشله فى الأداء الوظيفى الذى أنتج من أجله، والزيادة فيه عن المطلوب هى أيضاً من العيوب حيث تؤدى إضافة إلى العجز عن أداء الوظيفة المطلوب لها هذا المنتج إلى زيادة الفقد والهدر والإسراف فى ثروات الطبيعة مع إضاعة الجهد والمال. ويقول القرآن أيضاً عن داود فى صناعة

١) (١٠، ١١) سبإ.
٢) نفحة العبير مرجع سابق، صـ١٠٣٩
٣) المرجع السابق صـ١٠٣٩.

الدروع:

﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ﴾[1]،

ويقول عن البحر:

﴿ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾[2]

.... من يريد أن يعمل فلن يعدم المزيد.

نستطيع بعد ذلك أن نفهم حتمية سنة تسخير الطبيعة للإنسان، حتى يتسنى لمواهب الإنسان الظهور والعمل على كشف المخبوء فيها، وفى ذلك يقول القرآن فى آيات جامعة مانعه

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[3].

ثروات الطبيعة غير متناهية

﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ ﴾ ،

ولا توجد ندرة فى الطبيعة، إنما المشكلة فى سوء التوزيع

---

١) (٨٠) الأنبياء.

٢) (١٢) فاطر.

٣) (٣٢- ٣٤) إبراهيم.

﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ ﴾ ،

وفى التقاعس والقعود عن العمل، والكسل وترك ثروات الطبيعة مطمورة لاتجد من يستخرجها ويستغلها

﴿ كَفَّارٞ ﴾.

نفهم الآن سنة التسخير، وسنة التيسير فى قول الرسول ﷺ «إنما كل ميسر لما خلق له»[1]، ما يعنى أن اجتماع وتلاقى مواهب الإنسان، وثروات ومنافع ومعايش الطبيعة، مع تسخير الطبيعة للإنسان، وتيسير الأمر عليه بما يملكه من إمكانات، يؤدى ما سبق عند قيام الإنسان بواجب العمل إلى حصوله على القوة والسعادة والرفاهية والتمكين، ليصبح مهيأ للتكليف الثانى وهو العبادة.

العمل هو الأساس، ومواهب الإنسان هى التابع، والعكس غير صحيح بأن مواهب الإنسان هى التى اقتضت العمل وقد يرى البعض أنه لا فرق بين هذا وذاك - لكن إذا كان العمل هو الأساس، والمواهب والقدرات الإنسانية هى التابع، فإن ذلك يعنى أن عدم العمل، أو عدم توفير العمل، يؤدى إلى قتل المواهب، وضياع الثروات وذلك معنى من معانى كفران النعمة حيث حجبت هذه المواهب والثروات ومنعت الاستفادة بها بالقعود عن العمل، مما أدى إلى فقدان القوة والسعادة، مما يأخذ بيدنا للوصول إلى النتائج اللازمة التى تتطلبها أولوية واجب العمل بالنسبة للفرد:

* الواجب هو الإفادة من مواهب الفرد وقدراته إلى أقصى ما تحتمل وتطيق.

* يقتضى ما سبق التحديد العلمى الصارم لمواهب وإمكانات الأفراد.

---

١) سبق تخريجه.

* ثم العمل على تنمية هذه المواهب بمختلف الوسائل وعلى رأسها التدريب المستمر (Sustainable Training) لتحقيق التنمية المستدامة (Sustainable Development).

* الضرورة القصوى والحاجة -كما أسلفنا- إلى فقه يغطي جانب التكليف بالعمل، مثلما تم فى جانب العبادات، أى أن المطلوب إجراءات تماثل الإجراءات المضادة للسفه فى التصرفات المالية (على سبيل المثال)، فلابد من إجراءات لمنع السفه والتبديد فى المواهب الفردية، حيث أن بعض هذه الأعمال من الكبائر فى العقيدة الإسلامية (مثل قتل النفس- شرب الخمر التى تبدد الطاقة والعافية...). لابد من نظام صارم للتعرف على مواهب الأفراد، والحض على توفير العمل الملائم لبروز وتنمية هذه المواهب.

والسفه وتبديد المواهب من جانب المجتمع أيضاً، يجب أن يكونا من الكبائر، حيث تؤدى البيروقراطية المتجاوزة، والمحسوبية والرشوة، ومداهنة الرؤساء ونقص المعلومات، وسوء توزيع الأفراد... أيضاً إلى تبديد بل وقتل الموهبة، وبالتالى خسارة عضو عامل بلا جريرة. لذا لم يكن من الغريب أن يقول الرسول ﷺ : «من وَلِىَ من أمر المسلمين شيئاً فولىَ رجلاً وهو يجد من هو أصلح منه للمسلمين، فقد خان الله ورسوله»[1] وروى مسلم عن أبى ذر الغفارى ﷺ قال: «قلت: يارسول الله ألا تستعملنى؟ قال: فضرب على منكبى، ثم قال: يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها إمارة، وإنها يوم القيامة خزى وندامه، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذى عليه منها». المواهب والإمكانات «من كفاية ومقدرة هما معيار أهلية الفرد»[2].

وفى التعامل مع ثروات الطبيعة التى لا تحصى، فالكسل والتكاسل عن العمل: يؤديان إلى حجب وستر وتغطية (وهى معنى الكفر لغة) النعم والثروات والمنافع التى لا تعد بالوصف القرآنى، فذلك هو معنى (كفران

---

١) رواه الحاكم ، ابن تيمية ، السياسة الشرعية، ص١٨.

٢) العمل فى الإسلام – مرجع سابق، صـ٢٦.

النعمة) أى حجبها عن الاستفادة نتيجة التقاعس عن العمل على إخراجها، وبذلك نفهم معنى الآية

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾[1].

العمل يساوى رزقاً رغداً وأمنا واطمئناناً، والكسل والتقاعس والقعود فى العمل أو عدم التمكين من العمل وعدم استخراج ثروات الطبيعة المذخورة (كفرت بأنعم ربها) يساوى جوعاً وخوفاً.

عدم العمل – لمن يقدر عليه – تحت أى سبب من الأسباب، أو دعوة من الدعاوى، يعنى القضاء على مواهب وقدرات وإمكانات الإنسان الفرد والمجموع، ويعنى أيضاً تبوير وخنق الطبيعة.

عدم العمل – لمن يقدر عليه – هو عدوان على الذات الإنسانية، بنفس القدر الذى هو به عدوان على كرامة الطبيعة النبيلة المحببة الثرية والسخية.

يقول الرسول ﷺ : «إن الله خلق كل صانع وما صنع، إن الله خلق كل صانع وصنعته»[2].

ز- العبادات وتعريف العمل:

هناك العديد من التعريفات الخاصة بالعمل. وتختلف تلك التعريفات باختلاف الخلفية العلمية للقائم بالتعريف، بمعنى أن تعريف رجل الاقتصاد – يختلف عن تعريف المختص بعلم الاجتماع... وهكذا. يستند «علماء الاقتصاد فى تعريف العمل على أنه أحد العناصر الأساسية فى الإنتاج، أما العنصران

---

١) (١١٢) النحل.

٢) رواه البخارى.

الآخران فهما الأرض ورأس المال. وينطوى العمل فى هذا الاستخدام علـــى النشاط العقلى واليدوى معاً. والواقع أن هذا النشاط من وجهـــة نظـــر عـــالم الاقتصاد (مارشال) يُعَدّ: الجهد الذى يبذله الإنسان بغرض الكسب على وجه العموم. ويعرّفه فى نفس الوقت بأنه: الجهد العقلى والبدنى المبـــذول بشـــكل جزئى أو كلى لغرض نافع غير التسلية التى قد تستمد من العمل»[1].

ويقول الفريد كوهين: «إن العمل فى النظرية الاقتصادية هـــو: الجهـــد الإنسانى الموجه نحو كسب المعيشة، كما أنه أحد عناصر الإنتاج»[2].

وعند بعض الاقتصاديين المحدثين فإن العمل هو: «إجهـــاد ذهنـــى أو عضلى يبذله الإنسان لخلق المنفعة أو استظهارها. وقد يجتمع كل من الاجهاد الذهنى والعضلى فى عمل واحد»[3] وفى رأى (انجلز) أن «العمل الإنســـانى نشاط هادف وجهد خلاق... وأن العمل الإنسانى هو الـــذى يخلـــق الإنســـان نفسه»[4].

أما من الناحية اللغوية، فالعمل «أكثر شمولاً من مجرد السعى فى طلب المعاش أو تدبيره. إنه كل جهد يبذله الإنسان من أجل تحقيق هدف معلـــوم، ومن الحكمة المتوارثة مثلاً قولهم: (قم عن الطعام وأنت راغب فيه، وقم عن العمل وأنت قادر عليه). وهنا تنصرف لفظة العمل إلى جهد رتيب أو معتـــاد أو مألوف كالرياضة البدنية، أو الإطلاع طلباً للثقافة، أو التعبد، دون التفكيـــر فى أى كسب مادى يدخل فى مفهوم الرزق والمعاش ونحوهما....»[5].

إذاً تحديد العمل «فى كل من الاقتصاد وإدارة الأعمال بأنه: جهد ذهنى أو عضلى بقصد تدبير المعاش أو كفالة الرزق، هو تحديد خاص»[6].

---

١) العمل وقضايا الصناعة فى الإسلام مرجع سابق، صـــ١٧.
٢) المرجع السابق، صـــ١٧.
٣) العمل فى الإسلام – مرجع سابق، صـــ٥٢.
٤) المرجع السابق، صـــ٥٢.
٥) العمل فى الإسلام – مرجع سابق، صـــ٥٣.
٦) المرجع السابق، صـــ٥٣.

وإذا نظرنا إلى العبادات من الناحية الظاهرية، أى من جهة أعمال الجوارح، أى حركات البدن، علاوة بالطبع على التركيز الذهنى المطلوب لتحقيق الهدف المنشود منها نرى التالى:

* الصلاة: مطلوب لها مجهود بدنى + ذهنى.

* الزكاة: مطلوب لها مجهود بدنى يؤدى إلى حدوث قيمة مضافة ينتج عنها فائض فى القيمة عن الحاجة، يوفر إدخاراً يبلغ النصاب ويمر عليه عام فتؤخذ عنه الزكاة إضافة إلى الجهد الذهنى فى حساب قيمة الزكاة المفروضة، وتحديد مصارفها ومستحقيها، ثم مجهود بدنى لا يصالها إلى مستحقيها.

* الصوم: مجهود بدنى عالى، بالامتناع عن الطعام والشراب والشهوة من الفجر إلى المغرب على مدار شهر كامل، بالإضافة إلى مجهود ذهنى كبير للإمتناع عن كل المفطرات غير الحسية من أذى وغيبة ونميمة...

* الحج: مجهود بدنى هائل لعدة أيام لأداء مناسك الحج، علاوة على مجهود بدنى من السعى الذى قد يكون لسنوات من أجل الوصول إلى فائض قيمة يوفر الاستطاعة المادية التى هى شرط لأداء الحج، بالإضافة إلى المجهود الذهنى العالى المطلوب للتركيز على الأمتناع عن الرفث والفسوق والجدال فى الحج، ناهيك عن مقاومة الشح والحسد والبغضاء.... التى هى من عموم الممنوعات.

بالتعريف اللغوى للعمل (وحتى الاقتصادى) تصبح العبادات هى عمل بمعنى ما. ومن اللافت للنظر أن الإسلام يعتبر أيضاً كل عمل للإنسان تكون فيه النية خالصة لوجه الله هو عبادة بشكل مباشر، وحديث الرسول ﷺ عن الثواب فى ممارسة الجنس داخل مؤسسة الزواج مشهور*، وقوله «وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أجرت بها حتى ما تجعل فى فيِ (فم) امرأتك»[1] والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من العبادات، حتى تبسمك

---

١) متفق عليه.

فى وجه أخيك صدقة كما قال صلى الله عليه وسلم. وقوله صلى الله عليه وسلم عن أبى ذر ﷺ قال: «قلت يا رسول الله: أى الأعمال أفضل؟ قال: الإيمان بالله والجهاد فى سبيله. قلت: أىُّ الرقاب أفضل؟[*1] قال: أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمنا. قلت: فإن لم أفعل؟ قال: تعين صانعاً أو تصنع لأخرق[**2]. قلت: يارسول الله إن ضعفت عن بعض العمل؟ قال: تكف شرك[*3] عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك». إذاً خلصت النية لله فكل عمل منك هو لله، فهو عبادة، حتى إن سيدنا سليمان عليه السلام عندما أرسل خطاباً إلى ملكة سبأ يدعوها إلى الله وإلى زيارته قال فى خطابه:

﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[4]،

هنا أصبحت الدعوة والرسالة بسم الله.

وعندما تصبح اللقمة التى تناولها إلى زوجتك صدقه، والصدقة من أحب العبادات والقربات إلى الله، والصدقة من الصدق، والصدق دليل السلام بين باطن الإنسان وظاهره، وهو نوع من التوحيد بين الداخل والخارج، يصبح المعنى أن المجهود الذى يبذله الإنسان فى تحريك يده لوضع اللقمة فى فم زوجته صدقة، ويصبح المجهود الذى يبذل فى الحصول على اللقمة صدقة، أى أن العمل الذى اجتهد فيه الإنسان للحصول على العائد، الذى أنفق منه للإتيان بهذه اللقمة صدقة، والصدقة معنى رفيع من معانى العبادة، أى يصبح العمل عبادة، عبادة ذات قدر رفيع، وهنا يسقط من ناحية الشكل والمضمون ما يستقر فى ذهن البعض من الفصل بين العمل والعبادة - هنا أعيد التذكير بأن تكون النية خالصة لله فى العمل - أو القول بعمل دنيوى وعمل أخروى، أو التفرقة بين عمل مادى وعمل تعبدى، العمل كله عبادة بقدر ما أن العبادة

١*) أكثر ثواباً لمن اعتقها.

٢**) الأخرق: غير الحاذق.

٣*) قاصداً: سلامة الناس من أذاك.

٤) (٣٠) النمل.

عمل، الحركة فى المعنين واحدة، لأن الإنسان وعمله فى حالة خلوص النيـة هـو لله

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1]،

وهكذا نفهم معنى «أن تعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا». أى أن يصبح الإنسـان عبداً لله حتى لو قدّر له البقاء فى الدنيا إلى الأبد، «وأن تعمل للأخرة كأنـك تموت غدا» يعنى مداومة الحفاظ على النية خالصة لوجه الذى سوف تقابلـه فى الغد. وكذلك نستطيع أن نفهم معنى القول الآلهى

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[2]،

الأمر بالعمل هو على الوجوب وعلى الإطلاق لأنه عبادة لله، وهذا معنى من معانى الوسطية الإسلامية، أن العمل التنموى والإعمارى، والعبادة الخالصـة القلبية والحسية هما من نفس النسيج ومن نفس المعنى. «وهنا تبـرز نقطـة هامة كثيراً ما تدق على الكثيرين، ومنهم المتخصصون، وهى أن الإسـلام لا يعرف الفصل بين ماهو مادى وما هو روحى، ولا يفرق بين ما هو دنيـوى وما هو أخروى. فكل نشاط مادى أو دنيوى يباشرة الإنسان هـو فـى نظـر الإسلام عمل روحى أو أخروى، طالما كان مشروعاً، وكان يتجه به إلى الله تعالى».

فليس صحيحاً أن هناك صراعاً بين الدين والدنيا، أو أن هنـاك مجـالاً لكل من النشاط الدنيوى والنشاط الأخروى، فالإسلام لا يعترف بهذا الفصـل الميتافيزيقى بين الحاجات المادية أو الروحية، وذلك التمييز المصـطنع بـين الأنشطة الدنيوية أو الأخروية إلا على أساس مشروعية العمل وابتغاء وجـه الله.

ويحكى أن بعض الصحابة رأى شاباً قوياً يسـرع إلـى عملـه، فقـال

---

١) (٩٦) الصافات.

٢) (١٠٥) التوبة.

بعضهم: لو كان هذا فى سبيل الله؟ فرد عليهم النبى ﷺ : «لاتقولوا هذا، فإنه إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو فى سبيل الله، وإن كـان خـرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو فى سبيل الله، وإن كان خـرج يسـعى على نفسه يعفها فهو فى سبيل الله، وإن كان خرج يسعى مفاخرة ورياء فهـو فى سبيل الشيطان»[1].

العمل والعبادة لهما نفس النهاية، ويؤدى كل منهما للآخر، ويحمى كـل منهما الآخر، ويتعاونان فى رقى الإنسان فى رحلته مـن الحمـأ المسـنون (الطين الكريه الرائحة) إلى الإنسان الربانى، فى الرحلـة التـى ارتضـاها وتشرف بها للوصول إلى الكمال والسمو والرفعة، وهى التى تؤهله إلى لقـاء القدوس ذى الجلال والإكرام تحقيقاً لأمره

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ﴾[2].

وأخيراً وليس آخراً يقول الحق تبارك وتعالى

﴿ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾[3].

ح- الإسلام هو الذى أعاد الاعتبار للعمل والعامل:

كان الإسلام ثورة على كل الأصعدة، ثورة بالمعنى الحرفى للكلمة، ومن المجالات التى طالتها هذه الثورة مجال العمل. فقبل الإسلام مثّـل العمـل واليدوى منه بشكل خاص المستوى الأدنى من السلم الاجتماعى أو الطبقى.

ففى الحضارة الاغريقية كان العمل من نصيب الرقيق الذين يعملون من

---

١) مقومات العمل فى الإسلام- عبد السميع المصرى، مكتبة وهبه، طـ١٩٨٢، صـ١٦.
٢) (٦) سورة الانشقاق.
٣) (١١٤) النساء.

أجل خدمة الطبقات الأعلى وفى جمهورية افلاطون «جعل الزراع والصناع وعامة الشعب فى الطبقة الدنيا، لأنهم أصحاب العمل اليدوى أو الحرفى أو الجسدى... ولم يتخلص تلميذه ارسطو من هذه التفرقة»[١]. وكان افلاطون يرى أيضاً «أن بعض الأفراد يولدون عبيداً بالفطرة، وأنهم لا يصلحون إلا للعمل اليدوى، كما أن العمل اليدوى يحول بين الفرد والقيام بواجباته كمواطن»[٢] ويتابع أحدهم قائلاً «ومن المحتمل أن تكون فكرة اليونانيين القدماء عن مهانة العمل نابعة من أن العمل كان بالغ القسوة، ومثل هذا العمل نوعاً من العبودية لا تليق بالحر»[٣].

ولم يكن الحال أفضل كثيراً خلال المرحلة اليونانية.

أما الفرس فكانت الطبقية فى نظمهم غاية فى الشدة، حيث يقول البروفسير ارتهرسين مؤلف (تاريخ ايران فى عهد الساسانيين) «كان المجتمع الإيرانى مؤسساً على اعتبار النسب والحِرَف، وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة لا يقوم عليها جسر ولا تصل بينها صلة... ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة غير الحرفة التى خلقه الله لها، وكان ملوك إيران لا يولون وضيعاً وظيفة من وظائفهم، وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تميزاً واضحاً، وكان لكل واحد مركز محدد فى المجتمع»[٤].

فى الحضارة البرهمية فى الهند، ألف فيها قانون مدنى وسياسى، يعرف بإسم «منوشاستر»، «يقسم هذا القانون أهل البلاد إلى أربع طبقات وهى:

---

١) العمل وقضايا الصناعة فى الإسلام – مرجع سابق، صـ٤٣.
٢) أصول البحث الاجتماعى – عبد الباسط محمد حسن – مكتبة وهبة جـ١١، ١٩٩٠، صـ٥٨.
٣) ستافروس فوتيراس – ايديولوجية وقيم الاتجاه الكلاسيكى والرومانسى للعمل – المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية – اليونسكو ع، ١٤٤، يوليو ١٩٨٠، صـ١٠–١٦.
٤) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين – أبو الحسن الندوى، ط٨، ١٩٨٤، صـ٤١، دار الكتب العربية.

(أ) البراهمة:

طبقة الكهنة ورجال الدين.

(ب) شترى:

رجال الحرب.

(جـ) ويشن

رجال الزراعة والتجارة

(د) شودر:

رجال الخدمة»[1].

«ويقول (منو): إن القادر المطلق قد خلق لمصلحة العالم (البراهمة) من فمه، و(شترى) من سواعده، و(ويشن) من أفخاذه، و(الشودر) من أرجله، ووزع لهم فرائض وواجبات لصلاح العالم، فعلى (البراهمة) تعليم «ويد» (كتاب وتعاليم) أو تقديم النذور للآلهة وتعاطى الصدقات، وعلى (الشترى) حراسة الناس والتصدق وتقديم النذور ودراسة (ويد) والعزوف عن الشهوات، وعلى (ويشن) رعى السائمة[2] والقيام بخدمتها وتلاوة (ويد) والتجارة والزراعة، وليس (لشودر) إلا خدمة هذه الطبقات الثلاث»[3].

وعن (شودر وهم المنبوذون) وهم رجال الخدمة يقول القانون: «من سعادة (شودر) أن يقوموا بخدمة البراهمة، وليس لهم أجر أو ثواب بغير ذلك، وليس لهم أن يقتنوا مالاً....، وإذا مد أحد من المنبوذين إلى برهمى يداً أو عصا ليبطش به قطعت يده.... وكفارة قتل القطة والكلب والضفدعة.... ورجل من الطبقة المنبوذة سواء»[4].

نظرة العرب قبل الإسلام، لم تبتعد كثيراً عن ذلك، فالبدو لايميلون إلى

---

١) المرجع السابق، صـ٤٩.

٢) السائمة : البهائم.

٣) المرجع السابق، صـ٥٠، عن منوشاستر الباب الأول والثانى والثامن والتاسع.

٤) المرجع السابق، صـ٥١.

العمل الزراعى أو الصناعى، وكان بعض من أهل الحضر يقوم بأعمال الزراعة والتجارة وبعض الحرف، ولكن «ظلت بعض المهن محتقرة مزدراة يعيّر بها أصحابها كأنما هى وصمة عار. وحين لقى أبو جهل مصرعه فى غزوة بدر، لم يأسف على جراحه، بقدر ما أسف على إنتهاء حياته على يد (أكار)(١) ويقول وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة (فلو غير أكار قتلنى)»(٢).

ما رويناه سلفاً يوضح النظرة إلى العمل والعمال، وكذلك إلى العمل اليدوى من جانب الإنسانية جمعاء على وجه التقريب، وبمختلف أنواع الحضارات والثقافات والأفكار والفلسفات، وعلى امتداد المواقع الجغرافية المتباعدة على سطح الأرض. شيء بغيض، ومشقة مفروضة، وحقارة ممجوجة تُترك لمن يعتبر من نفايات الخلق، والذين هم فى أدنى السلم الاجتماعى وفى قاع التقسيم الطبقى، أمراً لا يجلب إلا العار حتى فى داخل المدن الفاضلة!! بغيضاً وممتهناً، ولولا الحاجة إليه ما كتب له ولمن يقومون به البقاء والحياة. استمر ذلك لعشرات من القرون قبل الإسلام فماذا كانت نظرة الإسلام إلى العمل؟ ولماذا وصفنا موقف الإسلام بالثورة فى هذا المقام؟.

جاء القرآن فى غاية الوضوح – كما أسلفنا – مبيناً أن الله خلق الإنسان لعبادته، وإلى جانب ذلك يطلب منه أن يقوم بالإعمار فى الأرض، أى القيام بالعمل التنموى الإعمارى

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾(٣)،

و﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾(٤)،

---

١) أكار: يقصد مزارع.

٢) العمل وقضايا الصناعة فى الإسلام – مرجع سابق، صـ ٤٧.

٣) (٥٦) الذاريات.

٤) (٦١) هود.

وجاء الأمر بالعمل مطلقاً مما يعنى الوجوب

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ ﴾[1]،

وسينال الإنسان شرف أن يرى الله عمله، ويطلع عليه الرسول ﷺ والمؤمنون

﴿ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[2]،

كما قرن القرآن العمل بالإيمان، بل أصبح الأمر فى قمته ومنتهــاه أن حيــاة الإنسان، الخليفة عن الله فى أرضه، والذى كرمه الله وفضله، هى فى النهاية توزن بمقدار عمله، وعمله فقط، فى ميزان العادل سريع الحساب

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ﴾[3].

وأعاد الإسلام الإعتبار إلى كلمة «عامل»، فالإنسان ســواء رجــل أو امرأة، شريف أو وضيع، حاكم أو محكوم، هو النهاية «عامل» لــذلك يقــول الحق تبارك وتعالى

﴿ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾[4]

لذلك لم يكن غريباً فى عهد الرسول وفى عهد الصحابة، عندما يعطى حكــم أحد البلاد أو الأمصار لأحد الأفراد - وهى وظيفة كبيره حتى بمعايير زمننا الحالى وإن كان كل الناس فى أيامهم سواسية كأسنان المشط، أن يسمى هــذا الشخص الحاكم «عامل»، فهذا «عامله» على العراق، وذاك «عامله» علــى مصر كان ذلك هو مدلول كلمة «عامل» وهو المــدلول اللغــوى الإســلامى

---

١) (١٠٥) التوبة.

٢) (١٠٥) التوبة.

٣) (٣٩- ٤١) النجم.

٤) (١٩٥) آل عمران.

الصحيح.

وإذا نظرنا إلى السنة النبوية، لنرى مفهوم وتحديد مكانة العمـل فمـاذا نجد؟. يقول صلى الله عليه وسلم: «على كل مسلم صدقه، قال: أرأيت إن لـم يجد؟. قال: يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق. قال: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: يعين ذا الحاجة الملهوف. قال: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: يأمر بالمعروف أو الخير»[1].

ويقول صلى الله عليه وسلم: «إذا قامت الساعة وفى يد أحـدكم فسـيلة فاستطاع ألا يقوم حتى يغرسها فله بذلك أجر»[2]. وعن عبد الله بن عدى بن الخيار: أن رجلين حدثاه أنهما أتيا رسول الله ﷺ يسألانه من الصدقة. فقلّـب فيهما النظر، فرآهما جَلدين (قويين)، فقال: «إن شئتما اعطيتكما، ولا حظ فيه لغنى، ولا لقوى متكسب»[3]. ليس الأمر أمر مال ولا مقابل، إنما هى ممنوعة عن القادر عن العمل، أيقاظاً لهمته ودفعاً له إلى العمل، لأن العمل هـو فـى الحقيقة حياة.

ويقول الرسول ﷺ «إن الدنيا حلوة خَضِرة، وإن الله مسـتخلفكم فيهـا، وناظر ماذا تعملون»[4].

وأعاد الرسول ﷺ الإعتبار والوجاهة والاحترام للعمل اليدوى، باعتباره من أفضل أنواع العمل، إن لم يكن أفضلها، بل هو أساس الحياة، يقول صلى الله عليه وسلم: «إن خير الطعام ما كان من عمل اليـد»[5]، ويقـول عليـه الصلاة والسلام: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن

١) رواه البخارى ومسلم.
٢) رواه أحمد.
٣) رواه أحمد وأبو داود والنسائى.
٤) صحيح مسلم.
٥)

نبى الله داود كان يأكل من عمل يده»[1]، وقال صلى الله عليه وسلم: «لأن يأخذ أحدكم حبله، ثم يأتى الجبل، فيأتى بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها، فيكف الله بها وجهه، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه»[2]، وفى ذلك يقول د. عيسى عبده «ولقد حث نبى الإسلام ﷺ على العمل الصناعى فقال: «خير الكسب كسب الصانع إذا نصح» فالصانع يبذل الجهد، ويؤلف بين خصائص الطبيعة التى خلقها الله للإنسان وسخرها له ليستخرج منها ما يعود عليه وعلى الإنسانية بالخير والرفاهة الاقتصادية». وكفاكم يا أرباب الحرف فخراً أن يكون نوح عليه السلام (نجاراً)، وإدريس (خياطاً).

وهذا حوار طريف ورد فى أول الجزء الثالث من كتاب (سبل السلام) للصنعانى: أى الأعمال الثلاثة أفضل؟ الزراعة - أم التجارة - أم الصناعة؟

اختلف الأئمة فيما بينهم أى الأعمال أفضل وأقرب إلى الله؟ وافترقوا فى ذلك إلى مذاهب. فقال جماعة منهم الشافعى: التجارة أفضل المكاسب. وقال آخرون: بل الزراعة أفضلها، لما فيها من معنى التوكل على الله، ولما فيها من النفع العام للآدمى وللدواب والطير.

وقال النووى: والصواب أن أطيب المكاسب الصنعة، ويستأنس لهذا الرأى بقوله صلى الله عليه وسلم: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده»[3]. كل عمل من الأعمال المشروعة أفضل من الآخر فى التقرب إلى رب العالمين، ولكنها سماحة وحرية الاختلاف.

«ثم هو صلى الله عليه وسلم يلقى عاملاً من الأنصار فيرى فى يده خشونة، فيقول له: ما هذا الذى أرى فى يدك؟ فيقول العامل: إنه أثر المسحاة أضرب بها وأنفق على عيالى... فيقبّل عليه السلام يده ويقول: هذه يد لا

---

١) عن المقداد بن معد يكرب، رواه البخارى.

٢) رواه البخارى.

٣) العمل فى الإسلام - د. عيسى عبده، صـ٩٤.

تمسها النار»[1].

الآن فى بلادنا اليد الخشنة علامة على تـدنى المسـتوى الاجتمـاعى، ونحن نطلق على تصرفات العامل أو الحرفىّ فى العامية لفظة أنه "بلدى" على العكس من المعنى اللغوى الإسلامي للكلمة ومضمونها. وحتى فـى الغـرب الصناعى الحديث فإن أحد معانى كلمة (LABOR) فى قـاموس اكسـفورد Advanced Learners فهى تعنى:

العمل: خاصة العمل البدنى الشاق.

Work, esp Hard Physical Work: Manual Labor

العمال: خاصة هؤلاء الذين يعملون بأيديهم، كطبقة أو قوة سياسية.

Workers, esp those who work with their hands, as a class or a political force.

فما زال العمال يصنفون كطبقة فى حين أن الإسلام منذ أربعـة عشـر قرناً جعل كل الخلائق وكل الناس «عمالاً» يطلبون بعملهم ثواب الآخرة، ﴿ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾[2].

البدن أيضاً فى حاجة إلى العمل، للإحتفاظ بقواه الحيويـة وانعكاسـاته العصبية العضلية، ومرونة مفاصلة ووصلاته، وبعد أن تضاءلت فرص العمل اليدوى، إضافة إلى النظرة الاجتماعية التى تترفع عن الأعمال المتعلقة بـه، أصبح الهاجس لدى الناس الآن هو كيفية المحافظة على صحة البـدن، عـن طريق ممارسة الرياضة والمشى والجرى والذهاب إلـى صـالات الألعـاب الرياضية البدنية، والالتجاء إلى النظم الغذائية المقيدة والمحسوبة، ممـا أدى بالعديد من الغربيين إلى الالتجاء إلى الهوايات التى تتعلق بالعمـل اليـدوى، والارتفاع بها إلى مستوى الاحتراف داخل منازلهم أو فى حدائق بيـوتهم، أو

---

١) نظم العمل فى الإسلام جمال الدين عياد صـ٨-٩.
٢) (١٩٥) آل عمران.

فى الأندية التى تجمع المشتركين فى نفس الهواية خلال العطلات الأسـبوعية والسنوية للحفاظ على اللياقة البدنية والذهنية والتخلص من ضـغوط الحيـاة اليومية. أصبحت الناس تدفع الكثير من المال لقاء الحصول على تعويض عن العمل اليدوى الذى احتقروه!!!.

هل كنت مبالغاً عندما وصفت الإسلام بالثورة الكبرى التى أتت للبشرية فى مجال العمل؟ وكيف أصبح المسلمون بعدها أقل الناس عملاً وإنتاجاً؟!..

يقول صلى الله عليه وسلم: «**اليد العليا خير من اليد السفلى، وأبدأ بمن تعول، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، ومن يستعفف يعفه الله، ومـن يستغن يغنه الله**»[1].

* * *

١) رواه البخارى.

الفصل الثانى
دور العمـــل

العمل هو المحرك، وهو الميزان والمقياس

داخل المسيرة التصاعدية التطورية للإنسان نحو الكمال:

يقول الحق تبارك وتعالى عن أصل مادة خلق الإنسان

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾[1]،

ويقول

﴿ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾[2]،

أى أن أصل المادة التى خلق منها الإنسان هى الطين الذى تخمر حتى أصبح كريه الرائحة. يطلب الله من الإنسان بعد ذلك، أن يعمل جاهداً على التحــول إلى إنسان ربانى فيقول له

﴿ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾[3]،

هذه المرحلة أو المسيرة من الطين اللازب[4] والحمأ المسنون، وصولاً إلـــى الإنسان الربانى هى ما أسميه مسيرة تصاعدية تطورية نحو الكمال. لماذا هى

---

١) (٢٦) سورة الحجر.
٢) (٢٨) سورة الحجر.
٣) (٧٩) آل عمران.
٤) اللازب: ملتزق بعضه ببعض.

تصاعدية؟ حين يحض الحق تبارك وتعالى الإنسان بشدة على الخروج والجهاد أثناء حياته سعياً وراء الكمال والإكتمال فيقول له:

﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾[1]

ويحض على مجاهدة النفس وتزكيتها قائلاً:

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[2]،

ويستنكر ويبكت القعود والتكاسل والهروب والتراجع في قوله:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾[3]،

والتثاقل إلى الأرض يعنى الهبوط والانجذاب والسقوط إلى أسفل وقوعاً فى أسر الأرض وجاذبيتها، مما يعنى أن الخروج والجهاد والمجاهدة والتزكية هى حركة ضد التثاقل، هى إرتفاع وصعود وتسامى، لذلك فالرحلة هنا تصاعدية فى مدارج الكمال. وماذا عن وصفها بالتطورية؟ خاصة إن كلمة تطور وتطورية محملة بدلالات غير محببة لكثير من المؤمنين بالرسالات السماوية الثلاث. ما نقصده هنا بأنها تطورية، راجع إلى القول القرآنى على لسان نوح وهو يدعو ويعظ قومه قائلاً:

---

١) (٤١) التوبة.
٢) (٧-١٠) الشمس.
٣) (٣٨) التوبة.

﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾[1]،

فالإنسان يمر من خلال أطوار فمسيرته هى أيضاً تطورية، من مثل قول الله تبارك وتعالى:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾[2].

وقد تكون الأطوار هى طور ما قبل النزول إلى الدنيا، إلى الطور الدنيوى، فالطور البرزخى، إلى الطور الأخروى.......

كما قد تكون المسيرة التصاعدية التطورية للإنسان من مثل المراحل التى يصفها الحديث المشهور فعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: "بينما نحن جلوس عند رسول الله ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبى، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه (أى جلس مثل جلسة التشهد فى الصلاة لاصقاً ركبتية إلى ركبتى الرسول)، وقال: يامحمد، أخبرنى عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ : «أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا»، قال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدّقه. قال: فأخبرنى عن الإيمان، قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»، قال: صدقت. قال: فأخبرنى عن

---

١) (١٣، ١٤) نوح.

٢) (١٢-١٤) سورة المؤمنون.

الإحسان، قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، قـــال: فأخبرنى عن الساعة، قال: «ما المسئول عنها بأعلم مـــن الســـائل»، قـــال: فأخبرنى عن إماراتها، قال: «أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفـــاة العـــراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان»، ثم أنطلق، فلبـــث ملـيـــاً ثـــم قـــال: «ياعمر، أتدرى من السائل؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنـــه جبريـــل، أتاكم يعلمكم دينكم»[1].

الحديث السابق يتحدث عن مراحل أو درجات أو أطـــوار يمـــر بهـــا الإنسان، تبدأ بالإسلام، ثم الإيمان، ثم الإحسان. وهناك روايات لذلك الحديث تضع الترتيب الإيمان، ثم الإسلام، ثم الإحسان، بدعوى أنه لابد للإنسان من الإيمان بالله أولاً، حتى يتسنى له دخول الإسلام، لكننى أذهـــب مـــع الـــرأى بالترتيب الوارد فى الرواية السالفة بأطوار الإســـلام فالإيمـــان فالاحســـان، مصداقاً للقول القرآنى:

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ ﴾[2]،

الإسلام أولاً، توطئة لدخول الإيمان فى حنايا النفس، ورحابة القلب.

إذا افترضنا أن الإسلام فالإيمـــان فالإحســـان هـــى أطـــوار المســـيرة التصاعدية التطورية للإنسان نحو الكمال فى هذه الحياة، أى يبدأ بالإسلام ثم يرتقى إلى طور الإيمان، ثم يواصل الارتقاء إلى طور الإحســـان، وإذا كـــان التكليف قد جاء للإنسان بالعبادة، وأيضاً بالعمل التنموى الإعمارى فى الدنيا، يصبح من البديهى الزعم بأن وقود الحركة التصاعدية التطورية للإنسان من الإسلام إلى الإحسان هو خليط العبادة والعمل.

---

١) رواه مسلم.

٢) (١٤) الحجرات.

سوف نقصر الكلام هنا على العمل، لأن العبادة ليست موضــوع هــذا الكتاب. العمل هو الوقود لقوله تعالى:

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[1]،

وقوله:

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾[2]،

وكما أن العمل الاعمارى التنموى داخل الطبيعة، هو سبيل الحصــول علــى خيراتها، وهو الطريق لامتلاك القوه، والحصول على أسباب السعادة والرفاه والاكتفاء، وحيث أن «الظاهر هو مرآة الباطن»، فإن العمل هو أيضاً ســبيل رفع الإنسان داخلياً، ودفعه فى مسيرته فى اتجاه تصاعدى ضد التثاقل، كمــا يطوى له المراتب والأطوار سعياً وراء الكمال.

وهنا ينشأ السؤال الحيوى والهام، كيف يعرف الإنسان موقعه خلال هذه المسيرة؟ كيف يحكم على مكانه ومكانته؟ هل هو داخل الإسلام؟ أين هو من الإيمان؟ كم يبقى للوصول إلى الإحسان؟ وإذا كان الرسول ﷺ قــد وصــف المؤمن بأنه «كيّس فطن»، ومن الفطنة أن يعرف الإنســان موضــع قدمــه والأحرى موقعه وموضعه. وإذا كانت العبادات هى وسائل تحقق غايــات – وذلك فى صورتها الأولية – من مثل

﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾[3]،

وأن الزكاة هى تطهر وتزكية من أمراض القلب كالشح مثلاً

---

١) (٧–٨) الزلزلة.
٢) (١٠) فاطر.
٣) (٤٥) العنكبوت.

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾[1]،

كما أن الصوم يورث «التقوى»

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[2].

فكيف يمكن قياس أو وزن أمور من مثل الطهر والتزكية والتقوى؟. وحتى عندما أتى القرآن بالتنبيه على أن معيار التفاضل بين الناس هو التقوى، وليست الاحساب والأنساب والألوان والأعراق قائلاً:

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[3]،

فإنه قد حبس العلم بالتقوى عن الإنسان، سداً لذرائع الغرور والتعالى حيث قال:

﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾[4].

فكيف السبيل إلى معرفة المقام؟ هنا أستطيع أن أزعم أن العمل هو الذى يقدم الإجابات على هذه الأسئلة. العمل هو المقياس الذى نستطيع به قياس موقعنا وموضعنا فى المسيرة. العمل هو الذى يحدد لك أين أنت، وحجم الإنجاز، وكم تبقى، وتلك واحدة من أعظم فضائل العمل، ومن أخطر موجباته.

النية التى وراء العمل أو «الدوافع» بالمصطلح الحديث، ومدى إتساع مجال العمل، ومدى إتساع دائرته، وما تشمله بداخلها - هل تشمل النفس؟ وهل تشمل النفس ومن تعول؟ وهل هناك مجال للآخر داخل الوعى الذاتى؟

---

١) (١٠٣) التوبة.
٢) (١٨٣) البقرة.
٣) (١٣) الحجرات.
٤) (٣٢) النجم.

كل ذلك يتغير ويتبدل بتبدل الأطوار، وبالتالى يصبح علامة على هذا الطور، وبه يمكن تحديد موقع الإنسان وموضعه فى مسيرته التاريخية على درب الخلافة عن الله. وتعالوا لنزيد الأمر وضوحاً، ونوضح المسألة تفسيراً.

١ - الإسلام

النية ومجال العمل ونتائجه

الإسلام بالمعنى اللغوى هو إسلام الوجه لله رب العالمين، وهو تسليم عقلى بوجود خالق واحد أحد، أوجد هذا الكون، وفى ذلك يقول العربى البدوى بحق، وبصورة تتبع مفرداتها من بيئته «البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فأرض ذات فجاج، وسماوات ذات أبراج، ألا تدل على الواحد الخبير».

وبالتعريف الذى قدمه الرسول ﷺ للإسلام فى الحديث السابق ذكره، وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت عند الإستطاعة. نلاحظ هنا أن التعريف يتحدث عن أعمال للجوارح مع الشهادة باللسان دونما التطرق للنظر إلى القلب. الإسلام إذن يقف عند ظاهر العبادة بعيداً عن التطرق إلى النية، ويدعّم ذلك حديث الرسول ﷺ حين سأله رجل فقال: أرأيت إذا صليت المكتوبات، وصمت رمضان، وأحللت الحلال، وحرمت الحرام، ولم أزد على ذلك شيئاً أدخل الجنة. قال: «نعم»[1].

الإسلام هنا يشبه معسكراً للتدريب الشاق على أداء الطاعات، مع التركيز على الانتظام والمداومة حتى يتحول أداء العبادات إلى عادة تمهيداً لانقلاب العادة إلى عبادة. هو نوع من التراكم الكمى حتى الوصول إلى عتبة الإدراك القلبى، ثم يتحول بعده إلى تغيير كيفى، موصلاً إلى الطور الذى يلى الإسلام.

---

١) رواه مسلم عن أبى عبد الله جابر بن عبد الله الأنصارى.

يركز الإسلام، وهو حاجز يجُب ما قبله، وعلامة فاصلة بين مـــا قبــل الإسلام وما بعده، على إيقاظ الوعى الذاتى، وعدم الالتفات إلى خارج مجـــال الذات بدائرتها التى تشمل الأسرة اللصيقة بالإنسان. لذلك يقول الرســـول ﷺ، عن أبى هريرة ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه»[1]. وهنا العمل مطلوب فى معناه الأساسى والأولى، وهو السعى على الرزق، للحصول على الأجر الذى يكفى حاجات الإنسان الأساسية التى تحافظ على بقائـــه وحياتـــه، وتتيح له أداء العبادات والطاعات التى تتطلب مجهوداً بدنياً، وهذا هـــو أحـــد معانى الشقاء للحصول على الطعام والكساء والماء والمسكن.

لكن هناك داخل معسكر التدريب هذا (الإسلام)، إعداد أولـــى لإيقـــاظ الوعى الفردى بحضور الآخر، عن طريق الإعداد المبدئى للـــوعى الفـــردى والطبيعة الذاتية للإنفتاح على الآخر، بفرضى الزكاة والحج، لكـــن أداءهمـــا يستلزم أن يتسع العمل خارج الحاجة، لإمكانية التوفير والادخار بمـــا يكفـــى للوصول إلى القيمة المقررة التى تستوجب الزكاة (تسمى فقهيـــاً النصـــاب)، ومرور عام كامل على هذا النصاب، فعليه حينئـــذ أن يـــؤدى الزكـــاة فـــى مصارفها التى حددها له الشرع، وهذه المصارف هى (وجه الآخر) الذى يبدأ ظهوره فى مرآه وعى المسلم، وهى بداية الشعور بالمسئولية عـــن الآخـــر. كذلك الحج فشرط وجوبه الاستطاعة، ما يعنى توافر الجهد والمـــال الـــلازم لإتمام هذه الشعيرة التى يطلّع المسلم من خلالها على أحوال الأمة كلها فـــى هذا المؤتمر السنوى مرة واحدة - فى الأغلب - فى حياة الفرد المسلم. كمـــا يحض الإسلام المسلم على أداء الصلوات المفروضة فى جماعة مـــا أمكنـــة ذلك، وذلك عملاً على استحضار الآخر داخل ذاكرة الفرد تمهيداً لما بعد ذلك من أطوار.

لكن ما نؤكد عليه أن الإسلام يقف عند الظاهر، ويترك مسئولية الباطن إلى الخالق، وحساب الفرد على الله تعالى، وفى البخارى عن ابى ظبيان قال:

---

١) رواه الترمذى وغيره.

سمعت أسامة بن زيد يقول: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة (اسم موضع) فصبحنا القوم فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، فكف الأنصارى عنه وطعنته برمحى حتى قتلته، فلما قدمنا بلغ النبى ﷺ فقال: يا أسامه أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟ قلت: كان متعوذاً، فما زال يكررها (اى الرسول يكرر قوله: اقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟) حتى تمنيت أنى لم أكن اسلمت قبل ذلك اليوم(١).

لكن المسئولية عن الأخر فى الإسلام تنحصر فى شقين: أولها إيجابية تتضح من الحديث النبوى: «المسلم أخو المسلم لايظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقرة.. بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»(٢). وثانيهما سلبياً بمعنى إذا لم يكن فى مقدورك مساعدة الآخر، فلن تعدم أن تكف عنه آذاك لقوله صلى الله عليه وسلم «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»(٣).

العمل فى طور الإسلام، هو سعى على الرزق لتوفير الحاجات الأساسية لبقاء الفرد ومن يعول، تحريراً له من الجوع والخوف، وعوناً له على أداء العبادات التى إفترضها عليه الإسلام

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾(٤).

٢ – الإيمان:

النية ومجال العمل ونتائجه:

يؤدى معسكر (الإسلام) الخاص بالإنضباط الخارجى فى العبادات،

---

١) متفق عليه.

٢) رواه مسلم.

٣) عن عبد الله بن عمرو بن العاص، متفق عليه.

٤) (٣-٤) سورة قريش.

والخاص بإيقاظ الوعى الذاتى والفردى بمسئولية الإنسان عن نفسه ودوره الخلاق فى المنظومة الكونية، والذى يعمل أيضاً على بدايات إظهار الآخر داخل مرآة الوعى الفردى، يؤدى ذلك كله إلى أن تؤتى العبادات وأعمال الجوارح ثمارها بالوصول إلى عتبة الإدراك القلبى، ويبدأ القلب فى الاستيقاظ، وتنعكس أعمال الجوارح الظاهرية على الداخل فى شكل مذاقات قلبية رحبة، ولعل ذلك هو المعنى الخفى وراء الآية السابق ذكرها والتى تقول

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ ﴾[1]،

الإسلام أولاً، والعمل به، توطئة لدخول الإيمان إلى داخل القلب، الإيمان الذى يجعل قلب الإنسان يسع الذى لا تسعة السماوات والأرض، وهذا ما أشار إليه تعريف الرسول ﷺ للإيمان حين أجاب جبريل قائلاً: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره».

نلاحظ من هذا التعريف بداية دخول «الآخر» إلى المجال القلبى الداخلى للفرد، أو إلى وعيه الذاتى، فى شكل مخلوقات أخرى غيبية «الملائكة» وأيضاً «الآخر» المختلف من ناحية العقيدة «كتبه ورسله». **الإيمان بالرسالات والديانات والكتب الأخرى، لاتعنى إلا القبول الراسخ القلبى واليقينى بالآخر، وحقه فى أن يكون مختلفاً بلا أدنى تأثير على الموقف القلبى تجاهه.**

أيضاً نرى فى كل الأحاديث النبوية عن الإيمان، هو أنه يعنى بالضرورة احتلال الآخر لمكانه داخل قلب ووعى المؤمن، بشكل لايقبل التأجيل أو التأويل،

﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ ﴾[2]

---

١) (١٤) الحجرات.
٢) (٢٨٥) البقرة.

ويعنى أيضاً بالضرورة وجوب اتساع الوعى الفردى لاحتضان الآخر، حيث يبدأ من الآخر القريب وصولاً إلى الآخر البعيد، فيقول صلى الله عليه وسلم: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»[1]. انظر إلى التوسع الحاصل والتمدد فى دائرة الوعى الفردى عن طريق الإيمان لتحتضن الآخر فى كافه صوره وأشكاله. ونرى هنا أن التعريف الذى قدمه الرسول للإيمان فى رده على جبريل والذى يشمل «الإيمان بالله واليوم الآخر» استلزم فى الحديث السابق منع الأذى بالقول عن الآخر بالصمت عند العجز عن التفوه بالخير، واستلزم اكرام الجار وكذلك الضيف. إيذاء الآخر نقيض للإيمان، لقوله صلى الله عليه وسلم: «والله لايؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن... قالوا: من يارسول الله؟ قال: من لم يأمن جاره بوائقه»[2].

الإيمان إذن يعادل ما للآخر فى وعيك، ولا يقتصر الأمر على معنى جامد يخلو من العاطفة للآخر فى القلب، أو بمعنى سلبى وهو كف الأذى عنه بل يعنى وجوب وضرورة وحتمية أن يضمر للآخر المحبة بمثل ما يحب لنفسه، والرحمة بمثل ما يرحم أهله وولده، لذلك يقول الرسول ﷺ: «لن تؤمنوا حتى تحابوا، أو لا أدلكم على ما تحابون عليه؟ افشوا السلام بينكم. والذى نفسى بيده لا تدخلون الجنة حتى تراحموا. فقالوا: يارسول الله كلنا رحيم. فقال: إنه ليس برحمة أحدكم خاصة، ولكن رحمة العامة، رحمة العامة»[3].

الإيمان الآن هو محبة ورحمة واحتضان وقبول ورعاية الآخر، حيث يقول الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه عن الآخر «فهو إما أخ لك فى

---

1) رواه البخارى ومسلم.

2) عن أبي هريرة، متفق عليه.

3) مستدرك الحاكم، حديث ٧٣١٠

الدين، أو نظير لك فى الخلق» الآخر هو المشارك فى الرحم أو فى العقيـدة، أو هو المخالف فيها، الآخر هو الإنسان، هو خليفة الله فى أرضه، هـو ابـن آدم.

ولا يكتفى الإسلام كدين بالموقف القلبى أو النية أو التصور الاعتقـادى فذلك فى الإسلام لايكفى للنجاة، بل لابد من العمل بما تعتقد، لأن العمل هـو البرهان الواقعى على الموقف القلبى أو النية أو التصور الاعتقـادى، وهـو التجسيد لهذا الاعتقاد داخل عالم الطبيعة، وهنا قدم الرسول ﷺ تعريفاً آخـر للإيمان فى قوله: «الإيمان ما وقر فى القلب، وصدقه العمـل»[1]. ويقـول: «وإن قوماً قالوا: نحسن الظن، ولم يعملوا، فقد كذبوا، لـو أحسـنوا الظـن لأحسنوا العمل»[2]. وهذا هو أحد الأسباب وراء الربط القرآنى المستمر بـين الإيمان والعمل:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾[3]،

وبين العمل والإيمان

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾[4].

لا يكفى هنا أن أحب الآخر وأرحمه، وأمنع أذاى عنه، بل الإيمان يقتضى أن تتسع دائرة العمل لتشمل الآخر، وتنعكس بفائض قيمه عليـه، وهنـا نفهـم التوجيه النبوى الرفيع: «الإيمان بضع وسبعون شعبة أدناها إماطة الأذى عن الطريق، وأعلاها لا إله إلا الله، والحياء من شعب الإيمان»[5]. للوصول إلى معنى لا إله إلا الله، وهو التوحيد الخالص الذى هو جوهر العقيدة الإسلامية،

---

١) صحيح – الكامل فى الضعفاء لابن عدى (٦/٢٢٩٠).
٢) مصنف ابن أبى شيبة ، حديث ٨، ٢٥.
٣) (٢٩) الرعد.
٤) (١١٢) طه.
٥) متفق عليه.

يبدأ الطريق إلى ذلك بالعمل من أجل الآخر بتنظيف الطرقات التى يمر بهـا أحدنا والناس لمنع الأذى الحسى والمعنوى عنهم، كما أن الحياء من الإيمان، وما الحياء إلا تفاعل مع الآخر يُلزم المؤمن بالامتناع عن ما يؤذى أخاه فـى الإنسانية من قول أو فعل أو توجه.

أن يعمل المؤمن بحيث يتخطى فائض عمله دائرة الأسـرة اللصـيقة، وصلة الرحم، والأصدقاء، والأحباء، لتشمل المجتمع الصـغير حولـه فـى منطقته وحيّه، ثم إلى دولته وصولاً لأمته، وإنتهاء بالإنسانية جمعاء، هذا هو الإيمان.

الانتقال بالقيمة المضافة، وفائض القيمة لعمل المـؤمن، لكـى يظلـل الآخرين هذا هو علامة الإيمان والدليل عليه، والنضال من أجل توفير حاجة الآخر، ومن أجل أمن الآخر وراحته ورفاهيته هذا هو الإيمـان. وإذا كانـت الأمور تعرف باضدادها كما يقال، فما هو ضديد الإيمان أو ما هـو عكـس الإيمان؟ هو التكذيب بالدين. فما هو تعريف التكذيب بالدين؟. يقـول الحـق تبارك وتعالى:

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾[1].

سورة كاملة تتحدث عن نقيض الإيمان. لم يقل إن التكذيب بالدين هـو عدم الصلاة أو الصوم أو الحج على أهميتهم كدعائم بنى عليها الإسلام ولكنه قال:

---

١) سورة الماعون.

١- الذى يدعّ اليتيم: يدعّ تعنى: يدفعه دفعاً عنيفاً عن حقه. أى الـذى يؤذى الآخر ويمنعه حقه. وجيء باليتيم لأنه الآخر البالغ الضعف الذى لا يجد من يحميه، وهو الأشد احتياجاً للرحمة والمساعدة.

٢- لايحض على طعام المسكين: أى الذى يتقاعس أو يقعد أو لايناضل بكل ما أوتى من قوة للعمل على وصول مقومات الحياة للآخر العاجز عـن الحصول عليها لسبب أو لآخر، لذلك سماه القرآن «المسكين» مـن السـكون وعدم القدرة على الحركة فى مضمار الحياة نتيجة افتقاد القوة بما هو خـارج عن إرادته.

٣- الذين هم يـراءون: أى أنه لا يعمل لصالح الآخر وصالح الجماعة التى ينتمى إليها، ويخدعها بإظهار مالا يبطن، ويعتقد مع ذلـك أنـه يـؤدى فرائضه لله تعالى، فهو يصلى لكنه فى حقيقة الأمر هو ساه عـن الصـلاة، لفقدانه للتطبيق العملى للمعتقد فى شكل عمل من أجل الآخر.

٤- ويمنعون الماعون: وفيها تأكيد للنقطة السابقة فهو لا يسع الآخـر بناتج عمله، ويمنع عنه خيره، والماعون هو الإناء للطعام والشراب والتمثيل به هنا لا يحتاج إلى مزيد من التفسير.

إذا إتسعت دائرة عملك التنموى الإعمارى لتشمل الآخر سواء فرداً كان أم جماعة، فأنت مؤمن بالعقل وبالنقل. وكلما اتسع العمل زاد الإيمان، وكلمـا زاد الإيمان، إتسع العمل لصالح المزيد من الآخرين فى جدليـة تصـاعدية، تتكامل فيها نفس الإنسان بالعطاء ومزيد العطاء وترقى لتعلو على الملائكـة، محققة لمسئولية الخلافة عن الله فى أرضه، فالخلق عيال الله، ومـن يـرحم ويكفل عيال الله فقد تخلق بخلق الله الرحمن الرحيم. لذلك قال رسول الله ﷺ: «والذى بعثنى بالحق، لا يعذب الله يوم القيامة من رحم اليتيم ولان لـه فـى الكلام، ورحم يتمه وضعفه، ولم يتطاول على جاره بفضل مـا أتـاه الله»[١].

---

١) رواه الطبرانى.

وهى عملية تحتاج إلى فهم دقيق، ومجاهدة للنفس، وإيمان يغمر القلب، بل إنها أيضاً تؤدى إلى زيادة الإيمان فى القلب، وإلى زيادة رقة القلب وحنانه وعطفه، فعن أبى هريرة ﷺ قال: إن رجلاً شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه، فقال: إمسح رأس يتيم، وأطعم المسكين"[1]. المسألة تدريب عملى واقعى وبذل وتضحية ومعاناه تورث الرقة والسكينة والحنان والعطف... تجعلك إنساناً بالمعنى الحقيقى.

عندما يقول القرآن:

﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾[2].

إقتحام العقبة كما نرى هنا هو تحرير إنسان من الرق والعبودية سواء أكانا حسيين مثلما الحال فى الزمن الماضى قبل أختفاء الرقيق، أو كانا معنويين عندما تستعبد الحاجة والفقر الإنسان، وتوفير الحاجات الأساسية (ويمثلها هنا الطعام) للضعفاء من الخلق سواء أكانوا أقارب «يتيما ذا مقربة»، أو كانوا أخوة فى الإنسانية «مسكينا ذا متربة»[3]، أى أن المطلوب إعادة جزء من العائد عليك من عملك إلى هؤلاء حتى تصبح من المؤمنين «ثم كان من ....» ومن المعروف أن المال الناتج من كد وعرق وجهد وشقاء، وهو المال الحلال، يصبح جزءاً من الذات الفردية، جزءاً ملتصقاً عضوياً بهذه الذات

---

١) رواه أحمد.

٢) (١١-١٧) سورة البلد.

٣) متربة: أى لا شيء له، كأنه لصق بالتراب لفقره، قال مجاهد: هو الذى لايقيه من التراب لباس أو غيره – نفحة العبير – مرجع سابق، صـ١٤٨٦.

تحبه مثلما تحب نفسها لأنها جبلت أيضاً على حب المال، إضافة إلى أنها تعبت واجتهدت في الحصول عليه، وعند تقديم أو إعادة جزء من هذا المال إلى الآخر، فأنت هنا تقطع من ذاتك، وتتغلب على ألم هذا الإقتطاع، وتجاهد حسرة الفقد عند العطاء فترتفع النفس فوق حب الأجر، وفوق شهوة التملك، وفوق خوف الفقر، وألم الشح والحرص وجمع المادة، وذلك من أعظم المجاهدة، ومن أشد القربات إلى الله، ومن أحلى مذاقات الإيمان، يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾[1].

هنا تنال «البر» وهو أعلى درجات الإيمان لقول الله

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾[2]

أي ليست المسألة مسألة توجه إلى القبلة

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[3]

---

١) (٨-٩) سورة الإنسان.

٢) (١٧٧) البقرة.

٣) الآية السابقة.

أنظر إلى الآية التى قيل أنها حوت أصول الإيمان وأصول الأعمال الصالحة وأكدت على الصدق والتقوى وما الدليل على انك تنال البر؟ ذلــك مصــداقاً لقوله

﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾[١]

الإنفاق مما تحب وبذله للآخر يعنى حصولك على البر. لذلك يقول الشاعر:

إن فى القرآن آية	هى للأرواح طب
لن تنالوا البر حتى	تنفقوا مما تحبوا

ومن البديهى أنه لابد للعمل الذى يسع الآخر، من أن يكون عملاً إنتاجياً خلاقاً أخلاقياً، فلا يحل الإنفاق من مال أتى من أعمال «التعدى أو القهــر أو الاستغلال»[٢]، وذلك حتى يتسنى «الحصول على التقوى والتزكــى وتكامــل الشخصية. كيف يستطيع ذلك، الذى جمع أمواله عن طريق الإعتــداء علــى حقوق الناس، أو سرقه الأموال العامة»[٣] وعلينا هنا أن نمســك القلــم عــن الاستطراد، ونقبضه عن الإنطلاق.

الإيمان أو العمل من أجل الآخر، أى الإنفاق علــى الزكــاة والصــدقة والتطوع وفى سبيل الله توجيه مهم وحساس لأنه «حينما تكون القاعدة المتبعة فى مجتمع ما، ألا يأخذ الإنسان من الثروات الطبيعية إلا بقدر حاجته فقــط، من الممكن أن يفكر المرء فى ألا يعمل إلا بقدر ما يأخذ أو بقــدر احتياجــه ومن ثم يسود التقاعس والكسل فى المجتمع، وهنا يكمن الخطر فى أن تجــف منابع الخلق والابتكار عن الناس، ويؤدى ذلك إلى ركود المجتمع»[٤].

---

١) (٩٢) آل عمران.
٢) الثورة الإيرانية – مرجع سابق، صـــ٣١٦.
٣) الثورة الإيرانية – مرجع سابق، صـــ٣١٦.
٤) الثورة الإيرانية، مرجع سابق، صـــ٣١٧.

هنا يدخل الإيمان بدوافعه غير المادية حيث «لا يلزم أن يكون جزاء الإنسان وكسبه من عمله مادياً صرفاً، أو فى صورة ثروة ونقود»[1]، الإيمان وإتساع دائرة العمل ليشمل الجماعة أو الآخر أيا كان على أساس المفهوم الإيمانى للمقابل للعمل الإنسانى الفردى أو الجماعى الذى يقوم على أنه «من الممكن أن تبادل بالقيم المادية، القيم المعنوية والروحية وصولاً للكمال»[2]. هنا فإن الفرد المؤمن داخل الجماعة، ولأجل الآخر النظير فى الخلق «يفرّط فى جزء من قيمه المادية مثل المال، أو الوقت، أو الطاقة الجسدية، وسنوات العمر، فى مقابل الفضائل والصفات الروحية والفكرية والإنسانية التى تقوى عنده»[3].

ويؤكد القرآن فى هذه الحالة على أن «ليس الأمر من قبيل التفريط فى شىء بل هو فى حقيقة الأمر مقايضة... تجارة»[4]. الأمر هنا صفقة رابحة وإدخار ذو سعر فائدة هائل، ونوع من الربا ذو أضعاف مضاعفه، ولكنه ربا يحبه الله حيث يقول

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾[5]

الأمر هنا يقوم على فكر اقتصادى رفيع يتعامل مع الذى لا يوجد من هو أوفى بعهده منه، حيث «ذكر الله تعالى هذه المقايضة فى القرآن مراراً تحت عنوان (إقراض الله)»[6]. إن الإنفاق أو التنازل عن فائض العمل الخلاق المنتج الحلال فى طور الإيمان هو «قرض مدفوع لله وسوف يرد، إن الله

١) المرجع السابق، صـ٣١٨.
٢) المرجع السابق، صـ٣١٨.
٣) المرجع السابق، صـ٣١٨.
٤) المرجع السابق، صـ٣١٨.
٥) (٢٧٦) البقرة.
٦) المرجع السابق، صـ٣١٨.

يتعهد بأدائه، ليس بقدره، بل عشرة أضعافه من القيم الأعلى والأسمى»[1] بل إلى سبعمائه ضعف والله يضاعف لمن يشاء إلى قمم وسمو وارتفاع وتحليق في معارج رحلة التصاعد التطورية نحو الكمال على درب الخلود.

يقول الله تعالى:

﴿ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾[2].

ويقول تعالى:

﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾[3].

ويقول جل وعلا:

﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا

---

١) المرجع السابق، صـ٣١٨.
٢) (١٢) المائدة.
٣) (١٥- ١٧) التغابن.

تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لأنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

ونلاحظ الإصرار على ذكر «قرضاً حسناً» أى ناتج من عمل صالح إنتاجى خلاق نافع، لا ظلم فيه ولا غش ولا تدليس ولا نفاق. الحوافز المادية، والمحركات النفعية إذا سادت وحكمت وحدها، يصبح الناس أفراداً وجماعات كالجزر المنعزلة ويواجه المجتمع الفرقة والتشرذم، ويعانى الصعوبات والعقبات والإنحراف.

إذا اتسع عملك ليشمل الآخر، فذلك هو الإيمان، فالإيمان هو الخروج بالعمل التنموى الإعمارى من دائرة الذاتية الفردية، إلى دائرة أوسع تضم أخوة العقيدة، ونظراء الخلق، فدليل إيمانك وميزانه ومقياسه، ودليل حبك لله، أن يمتد نفعك ليظلل الآخر من هجير الحياة، ولفع الحاجة، وحر البؤس والاحتياج.

عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كل سلامى[2] من الناس عليه صدقة. كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين اثنين ... صدقه. وتعين الرجل فى دابته فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه... صدقه. والكلمة الطيبة.... صدقه وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة... صدقه. وتميط الأذى عن الطريق .... صدقة»[3].

---

١) (٢٠) المزمل.
٢) السلامى: أى أعضاء الإنسان، أى أن على الإنسان كل يوم تطلع عليه فيه الشمس صدقه مقابل سلامة أعضائه.
٣) رواه البخارى ومسلم.

٣- الإحسان

النية ومجال العمل ونتائجه:

يأتى وقت مع إتساع دائرة العمل، وترقى النفس على درجات الكمال والسمو والتزكية، وتغلب الإنسان على معانى حب النفس والأنانية والشح، أن تذوى وتتضاءل صورة الذات الفردية فى مرآه الوعى وعلى صفحة القلب بحيث أنها تكاد تتلاشى، وتعلو الهمة بحيث ترتفع حتى عن رؤية الآخر الذى تعمل من أجله إرضاء لله، ولايبقى لك ما تراه إلا الله. تختفى من الوعى رؤية الأسباب ولا يبقى فيه إلا مسبب الأسباب. لقد ارتفع العمل بالإنسان ليتخطى الأنا، ويتجاوز الآخر القريب والبعيد، بحيث لايرى الإنسان أينما التفت إلا الله، مصداقاً لقوله جل وعلا:

﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾[١]

ويقول الرسول ﷺ: «كان الله ولاشىء معه، وهو الآن على ما عليه كان»[٢]، الله ولاشىء معه. يتسع الأفق حولك بشكل هائل، وتتضاءل الذات الفردية وتنكمش هى والذوات الأخرى، ولا يصبح أمامك إلا الوجود الحقيقى وهو الله ولاشىء معه. هنا يصبح العمل لله وحده، ومن أجل الله وحده، ولا ترى فيه إلا الله وحده. يصبح العمل فى ذاته لذاته لأن الله يريد منك ذلك. يتوجه الإنسان فى هذه المرحلة بالعمل إلى الله، ويعمل بالله، ثم من خلاله يصل إلى الأنا وإلى الآخر مرة أخرى. فى طورى الإسلام والإيمان كنت ترى الأنا والآخر وتعمل من أجلهما ولهما مرضاة وتقرباً إلى الله، فأصبحت فى طور الإحسان لاترى إلا الله، ثم منه وبأمره تظهر الذوات الأخرى المخلوقة على صفحة مرآة قلبك.

---

١) (١١٥) البقرة.

٢)

كنت ترى الوردة الجميلة الزكية فتنفعل وتقول: سبحان الله، وتبارك الله أحسن الخالقين، فأصبحت ترى الله الخالق وحده، وهو الذى يدلك على الوردة، والفرق هائل، والمعنى دقيق، لا يتطاول إليه إلا من يحياه ويتذوقه. أكاد أزعم أن هذا ما يعنيه الرسول ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه»، وكلمة «كأنك» هنا ضرورية لأن الله تبارك وتعالى:

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾[1].

وإن لم تكن تراه، «فإنه يراك»، وهنا أيضاً يصبح العمل موجهاً إلى الله، حيث إنك تعمل وأنت على يقين بأن الله يراك، فكيف يصبح أداؤك للعمل، وإتقانك فيه، إذا كنت تعيش فى هذا المعنى.

لايمكن إلا أن يكون العمل هنا ناتجاً عن «الإحسان»، إن كنت تعمل «وكأنك» ترى الله، أو كنت تعمل وأنت تحيا متذوقاً وواعياً «أنه يراك»، لن تستطيع إلا الإحسان فى العمل.

ارتفاعك عن الأنا وعن الآخر، وعلو همتك عنهما ناظراً إلى الله، وتوجهك بالنية والعمل إلى الله وحده، يأخذ بيدك إلى التخلق بأخلاق الله. دأب الله فى العمل، وصفته فى الصنع هى الإحسان. يقول الحق تبارك وتعالى عن ذلك:

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾[2]،

ويقول:

﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾[3]،

---

١) (١٠٣) الأنعام.

٢) (٧) السجدة.

٣) (٦٤) غافر، (٣) التغابن.

التخلق بأخلاق الله، ورؤيته وحده فى العمل، تدفع الإنسان إلى الإحسان فـــى العمل، ولذلك يقول الله تعالى عمن يقوم فى هذا الطور:

﴿ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[1]،

ويقول أيضاً:

﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾[2].

الإحسان مطلوب فى كل عمل، كبيراً كان أم صغيراً، عظيمـــاً كـــان أم ضعيفاً، الإحسان حتى فى نحر الذبائح فعن أبى يعلى شداد بن أوس رضـــى الله تعالى عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شىء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْله، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليُحِد أحـــدكم شـــفرته وليرح ذبيحته»[3].

الإحسان هو أن تعمل ناظراً إلى الله وحده، ومتجاوزاً الذات والآخـــر، وأن تخرج من كل الدوائر، ومن طلب الأجر، ومن إقراض الله قرضاً حسناً، فاراً إلى الله وحده، فاراً من الله إلى الله، الحق تبارك وتعالى هنا هـــو قِبلتـــك ومطمعك ومرآتك، التى فيها تتحقق ذاتك، وبه ومن خلاله تعود مره أخـــرى إلى الذات الفردية وإلى الجماعة، وإلى طلب المثوبة متحققاً بأخلاقه جل وعلا بالقدر الذى أنعم به عليك.

الإحسان هو اكتمال تحقق الذات الإنسانية، حيث اتصل المتناهى (الذات الفردية)، باللامتناهى (الذات العلية)، ونظر الوجود الجزئـــى النســـبى إلـــى الوجود المطلق الكلى، وهنا تكتسب الذات الفردية التحقق بوجودها غير القابل للهلاك لأن:

---

١) (١٩٥) البقرة.
٢) (١٣٠) الكهف.
٣) رواه مسلم.

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾[1]

وأن

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾[2].

ذلك في زعمي هو تحقيق الذات «Self Actualization».

يقول أحد الصالحين «كل الناس هلكى إلا العاملين، وكل العاملين هلكى إلا المؤمنين، وكل المؤمنين هلكى إلا المخلصين، والمخلصون على خطر عظيم» نجاة الذات الفردية من الهلاك، وتحققها بالوجود الحقيقي الذى لا يعتريه فناء، لاطريق إليه إلا طريق الاتصال الكامل، والخضوع التام، والمشاهدة التى تبلغ درجة الشهيد، والمراقبة إلى الحد الذى «إن لم تكن تراه فإنه يراك» وهو جل وعلا الوجود المطلق الحقيقى الفعال، هنا فقط لاهلاك بل بقاء، ولا محدودية بل اتساع، ولا فناء بل خلود، هذا هو تحقيق الذات. لقد أصبحت الذات الفردية حقيقة أزلية بنظرها فقط إلى، وعملها فقط للأول الذى ليس قبله شيء، والآخر الذى ليس بعده شيء، والظاهر الذى ليس فوقه شيء، والباطن الذى ليس دونه شيء، ذلك هو تحقق الذات.

بالعبادة وحدها، لا يمكن للإنسان أن يتعرف على موقعه وموضعه فى السلم التصاعدى التطورى للرحلة إلى خالقه، والعبادات وإن كانت واجبه وضرورية وفرضية بالنص القرآنى

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[3]،

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾[4]،

---

١) (٨٨) القصص.
٢) (٢٦، ٢٧) الرحمن.
٣) (٢٠) المزمل.
٤) (٢١) البقرة.

﴿ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾[1]،

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ..... ﴾[2]،

ثم إنه لابديل عن ذلك فى العلاقة مع الله حيث يقول النبى ﷺ حاكياً عن ربه: «وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما أفترضت عليه...»[3]، لكن العمل فى زعمى هو إلى جانب وجوبه وحتميته للتصاعد والتطور، يدلك على موقعك وموضعك. إتساع دائرة العمل، وأسلوب أدائه، والنية الجاثمة وراءه، هى وسائل الاستدلال وأدوات الإدراك، التى بها تصل إلى معرفة هل أنت فى طور الإسلام أم الإيمان، أم فى طور الإحسان.

العمل بذلك هو الوقود والمحرك والقوة الدافعة للتصاعد، وهو فى الوقت نفسه المقياس والبوصلة والميزان ووحدة القياس التى بها تحدد موقعك وموضعك.

الخلاصة:

الإسلام:

له دائرة تشمل الاهتمام بالذات الفردية مع الأسرة اللصيقة التى تقع مسئوليتها على هذه الذات الفردية.

يأخذ العمل المطلوب لهذا الطور، شكل السعى على الرزق ومحاولة توفير المطالب والاحتياجات الأساسية اللازمة لبقاء الحياه واستمرار العبادة.

تدريب الوعى الذاتى على بدايات التعرف والتعامل مع الآخر عن طريق:

---

١) (١٨٤) البقرة.
٢) (٩٧) آل عمران.
٣) عن أبى هريرة، أخرجه البخارى.

* محاولة إكمال ركنى الإسلام من زكاة وحج، عند اتساع دائرة العمل لتوفير الموارد اللازمة لتحقق شروط أداء الزكاة والحج.

* الحض على معنى الجماعة من خلال الصلاة.

* الأمر بإنشغال الإنسان بنفسه، وتركه مالا يعنيه.

* عدم الإساءة أو العدوان على الآخر القريب والبعيد بكف الأذى عنه، وهو معنى من معانى العطاء إلى الآخر، وإن كان فى شكل سلبى.

الإيمان:

هو تمام الوعى بالآخر، وإتساع دائرة العمل لتحتضن الآخر، والارتفاع بالعمل أو أن يرتفع العمل بالإنسان ليتعدى تلبيـــة حاجـــات الـــذات الفرديـــة الأساسية، ويتجاوزها إلى المسئولية عن تلبية حاجات الجماعة تربية للـــذات الفردية وتطهيراً وتزكية لها، وإشاعة للسلام والحب تقرباً لله وزلفى له، وهو ما سماه الله «إقراض الله قرضاً حسناً».

العمل بدأ من أجل الذات ومن نحب، ثم أتسع وتجاوز ليصبح من أجـــل الذات ومن نحب وللآخر بمعناه العام، قربى لله وبرهاناً على صدق التوجـــه إليه حيث يقول صلى الله عليه وسلم، «الصلاة نور والزكـــاة برهـــان....»[1] فإعطاء الآخر هو برهان على الإيمان بالله، وتزكية للذات الفردية من خـــلال الآخر، حيث يقول صلى الله عليه وسلم، «المؤمن مرآة أخيه»[2] الآخر هـــو المرآة لك، فأنت حين تنظر فى المرآة لاترى إلا نفسك، فإذا نظرت إلى الآخر ورأيت خيراً ومحبة وسلاماً ورغبة فى البذل والعطاء والعمل من أجله، فأنت هنا ترى نفسك المؤمنة، وإذا رأيت غير ذلك، فأنت ترى نفسك أيضاً كما هى.

---

١) سنن النسائى المجتبى، حديث ٢٤٣٦.

٢) الأدب المفرد، حديث ٢٣٩.

الإحسان:

لاترى إلا الله فى عملك وبعملك تسقط الأنا والآخر ويتواريان فى مدى رؤيتك، ولا تعود إليهما إلا من خلال الله. نظر الـذات الفرديـة المحـدودة الفانية، إلى الذات الإلهية ذاتية الوجود والأزلية والسرمدية والباقيـة، يعطـى ويفيض على الذات الفردية بالتحقق وعدم الهلاك، وهذا هو تحقيـق الـذات الفعلى، ومعنى الخلافة، وخلود الإنسان.

هل يحتاج وجوب العمل التنموى الإعمارى الإنتاجى الخلاق والأخلاقى إلى مزيد برهان؟

يقول الحق تبارك وتعالى لنبيه داود:

﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾[1].

اللهم أجعلنى وأهلى وقومى من الشاكرين..... أى من العاملين، فـنحن فى مسيس الحاجة إلى العمل...

---

١) (١٣) سبأ.

توطئـــــة

جرت العادة على أن يضع مؤلف العمـــل فـــى مقدمتـــه مايريـــد مـــن إنطباعات وتفسيرات وتوضيحات وتشديدات، لكننى آثرت على خلاف المعتاد أن أضع هذه التوطئة فى الموقع اللصيق بالفصول الثلاثة التالية وهى:

أ- **الفصل الثالث:** الذى يتحدث عن أن العمل هو الذى يرتفع بالإنســـان على سلم الحاجات الإنسانية آخذاً بيده من الإنغماس فى الحاجات الماديـــة - ذات الأهمية القصوى لبقاء الحياة - وحاجته إلى الأمـــن صـــاعداً بـــه إلـــى الحاجات الأعلى مثل الحاجات الاجتماعية والانتمائية والمعرفية التى لها ذات الأهمية مثل نظيرتها المادية حيث أنها لازمة ليصبح الإنسان إنساناً مخاطبـــاً بهذا الإسم من قبل الحق تبارك وتعالى:

﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[1].

(ب) **الفصل الرابع:** والذى يتحدث عن أن العمل هو من أهـــم القـــوى الدافعة إلى التغيير فى منظومات القيم والأخلاقيات والمشاعر الإنسانية.

(جـ) **الفصل الخامس:** وهو يبحث فى العلاقة البنيوية بين العمل وبين التصور الإعتقادى أو نظرة الإنسان الكونية أو نظرته للعالم مـــن حيـــث أن العمل هو الاختبار الحقيقى للحكم على صلاحية أو عدم صلاحية الأفكار على المستوى الواقعى العملى، وبذلك فهو أداة التصويب والتعديل والتحقـــق ممـــا يوسع من أفق التصور الإعتقادى ويزيد من صحته وثبوتيته.

وحيث أن موضوعنا فى هذا الكتاب هو بيان أن العمل فى مرتبة العبادة وهما جناحان لا يتسنى التحليق فى سماء الدين بدونهما أو بـــدون أحـــدهما، ونظراً لغياب فقه العمل - كلمة «فقه» هنا بمعناها الاصطلاحى الدارج بـــين المسلمين وكذلك بمعناها اللغوى فى العربية - مما أدى لغياب الـــدور الـــذى

---

١) الآية (٥) سورة العلق.

يلعبه العمل فى الإرتقاء بالحاجات الإنسانية من المادية إلى ما يعلوها، وكذلك فى الحراك القيمى وأيضاً فى استكمال التصور الاعتقادى كما سنبين فى الفصول المشار إليها أعلاه، فكان لزاماً علينا الاستشهاد من تجربة الناس الذين لديهم فقه حقيقى للعمل - بمعناه اللغوى فى اللغة العربية - ولديهم نظرة كونية متماسكة قابلة للتطور والنمو - بغض النظر عن قبولنا أو عدم قبولنا لهذه النظرة - وكان للعمل السهم الأكبر فى ذلك.

الاستشهاد هنا ليس محاولة للتوفيق أو التلفيق بين الإسلام وبين ما هو حادث ويحدث فى الغرب، لكنها محاولة لتوصيل أهمية العمل إلى إفهام أهلنا وذوينا إلى أن نملك من تجربتنا ما يمكننا الاستشهاد به فى هذا الصدد.

ولا يعنى الاستشهاد أيضاً وجوبية أن نصل إذا عملنا إلى نفس النتائج حيث أن اختلاف المقدمات ونقاط الإنطلاق إضافة إلى حتميات الجغرافيا وخصوصيات التاريخ قد تؤدى إلى إختلاف النتائج، لكن ذلك لايمنع من الإستفادة من مجمل التجارب الإنسانية، والإنسان هو الإنسان وإن اختلف لون بشرته أو عينيه أو اختلفت تقاطيع وجهه ونعومه شعره أو خشونته، والاختلاف هو الباعث على التعارف والإئتلاف

﴿ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ ﴾[1]

وكذلك «كلكم لآدم وآدم من تراب»[2]

لذلك أرجو ألا يشعر القارئ فى هذه الفصول الثلاثة بأى تغيير فى المناخ العام للكتاب، أو بشبهة محاولة ربط ماهو حادث فى العالم المعاصر بشيء من الدين، أو ببعض التكرار، فليس شيئاً مما سبق هو من أهداف هذا الكتاب بأى حال.

---

١) (١٣) الحجرات.

٢) حسن، الطبقات الكبرى، جـ١، ص١، ح ٥ ط التحرير.

وإذا صح الزعم منى بأن العمل هو الرافعة والقاطرة التى ترفع الإنسان فى تراتبية الحاجات الإنسانية من الأدنى إلى الأعلى، وأن العمل هو أحد القوى الدافعة على الحراك القيمى والمحركة للأحاسيس والمشاعر الإنسانية والمسببة فى تعديل المنظومة الأخلاقية، كما أنه أحد عوامل تصحيح التصور الاعتقادى أو النظرة الكونية، فيصبح فى غياب فقه العمل داخل وعى الإنسان إضافة إلى غياب الهياكل التنظيمية للعمل الحقيقى والتنموى والإعمارى الفاعل والخلاق والمؤدى إلى إضافة القيمة، أقول يصبح فى غيات فقه العمل هذا إجابة جزئية عن السؤال الهائل والمصيرى القائم فى داخلنا على مدى من الزمن ليس بالقصير عن سبب الركود الجاثم بثقله على مجتمعاتنا، والممسك بتلابيب حياتنا على كل الأصعدة والمستويات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، وفيه بعض البيان عن أحد الأسباب الكامنة وراء هذا الركود المقيم....

لكل ماسبق رأيت أن تكون هذه التوطئة لصيقة بالفصول الثلاثة التالية على خلاف ما هو سائد.

وقد استعنت فى ضرب الأمثال على ما أزعم بكتاب:

MODERN HUMAN RELATIONS AT WORK
6th EDITION
R.M. HODGETTS
DRYDEN PRESS

أسأل الله السلامة،

* * *

الفصل الثالث
العمل والحاجات الإنسانية

العمل هو المحرك والرافعة فى المسيرة التصاعدية

على سلم الحاجات الإنسانية:

قلنا فيما سبق أن هناك تعريفات مختلفة للعمل طبقاً لتخصص صـــاحب التعريف سواء أكان اقتصاديا أو اجتماعيا... وذكرنا من هذه التعريفـــات أن العمل هو:

- الجهد العقلى والبدنى المبذول بشكل جزئى أو كلى لغرض نافع غير التسلية التى قد تستمد من العمل.

أو - هو إجهاد ذهنى أو عضلى يبذله الإنسان لخلق المنفعة أو استظهارها، وقد يجتمع كل من الإجهاد الذهنى والعضلى فى عمل واحد.

أى يمكننا القول أن العمل هو: «المجهود البدنى أو العقلى المبذول بغية إنجاز هدف ما»[1]. وأضيف من عندى «أن سد أو إشباع حاجة إنسانية مـــا هى من ضمن الأهداف التى ينجزها العمل».

وذكرنا من قبل تحذير القرآن لآدم وحواء فى الجنة من كيد إبليس ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾[2].

بذلك فإن التعريف القرآنى للعمل فى معناه الأولى والإساسى هـــو: «الشـــقاء

١) صـــ ١٤ Modern Human Relations at work.

٢) الآية (١١٧-١١٩) سورة طه.

(بذل مجهود عضلى وذهنى) للحصول على حاجات أساسية (الطعام والكساء والمشرب والمسكن)». وأوضح الرسول ﷺ فى بعض الأحاديث السابق الإتيان بها، الحاجات الإنسانية التى يسدها العمل مثل: الحصول على الطعام للنفس وللأولاد وللأبوين الشيخين الكبيرين، وللإعفاف من السؤال، وكذلك للإعفاف بالزواج، وللتصدق....

لكن السؤال الآن: هل الحاجات الإنسانية تقف عند الطعام والملبس والمشرب والمسكن والتكاثر... إلى آخر هذه الحاجات المادية؟ أم أنها تتسع إلى المزيد؟ نحن بحاجة إلى تعريف أشمل وأدق لمعنى الحاجة الإنسانية، ثم علينا تتبع هذا التعريف ومدى علاقة العمل به.

تعريف الحاجة الإنسانية:

* عندما نرى الناس يعملون بجد واجتهاد، نقول عنهم أن لديهم ما(يحضهم) أو (يحثهم) أو (يحرضهم) على العمل، لأننا نراهم يتحركون بجد واجتهاد سعياً وراء إنجاز الهدف المطلوب. ويقال عنهم فى اللغة الانجليزية THEY ARE MOTIVATED إذن يمكن القول أو التعريف بأن:

الحض (Motivation): هو الدافع النفسى الذى يوجه المرء نحو هدف ما. يأتى الأصل اللاتينى لكلمة «Motivation» من «movere» وتعنى الحركة « To Move » أو فعل الحركة والإنتقال، ويصدق ذلك على سكرتيرة تطبع على الحاسب الآلى ١٠٠ كلمة فى الدقيقة، وعلى الأخرى التى تقرأ ببطء وتمهل وثيقة قانونية معقدة.

إذن «الحض» يقتضى ما يتجاوز الحركة. إن التلميذ الذى يحدق فى فقرة مطبوعة على ورقة كتاب قد يكون منهمكاً فى حفظها لكننا لا نرى هنا حركة واقعية تحدث أمامنا. لذلك فإن الحض يشمل:

* الحركة الجسمانية والبدنية.
* والحركة العقلية والذهنية. (١)

مثلما أشارت تعريفات العمل فى أول الفصل.

إضافة إلى ذلك فإن أى تحليل منهجى «للحض» ينبغى لـــه الاهتمـــام بالسؤالين كيف؟ ولماذا يتصرف الناس على هذا النحو؟. السؤال بكيـــف قـــد تسهل الإجابة عليه، أما الآخر الذى يبدأ بلماذا فتحديد الإجابة عليـــه ليســـت بالأمر اليسير. عندما نقول أنه عرض على «عادل» العمل يوم أجازته بمـــا يعادل مرة ونصف الأجر اليومى المعتاد لـــه، وأنه وافق على العمـــل يـــوم أجازته، نستطيع عندئذ أن نجيب على السؤال: كيف استطعت إقناع «عادل» بالعمل يوم أجازته؟ بالإجابة «المال». مع ذلك لا نستطيع القطع عن: لمـــاذا رغب «عادل» فى العمل يوم أجازته؟. قد يكون ذلك لأنه يريد شـــراء شـــقة لكى يتزوج فيها، أو أن يذهب فى أجازة صيفية إلى الساحل الشـــمالى، أو أن يدخر بعض المال لوقت الحاجة، أو مساعدة خالته العجوز فى دفع مصاريف العلاج... الـــ «لماذا» ليست واضحة حالياً، وإذا أردنا الإجابة يجـــب علينـــا تحرى أمراً آخر. ذلك الأمر هو «الحـــافز» (Motive) الـــذى يقـــف وراء «لماذا».

إذن الحض يشمل أيضاً:

«الحافز» الذى يفسر لماذا يتصرف الناس على هذا النحو. (٢)

من (١)، (٢) يمكننا القول الآن أن الحض له جانبان:

* **الحركة:** وهى الجانب الأول الذى يمكن رؤيته.

* **الحافز:** وهو الجانب الثـــانى ولانســـتطيع إلا تخمينـــه أو محاولـــة الإستدلال عليه.

الحافز (Motive): هو الـــ «لماذا» المتعلقة بالسلوك. وعادة ما يمكن تعريفهـــا بالحاجـــات «Needs »، أو الـــدوافع (Drives) أو الـــدفوع (Impulses) التى تعتمل داخل الإنسان الفرد. وبغض النظر عن المســـميات يمكننا الآن القول بأن:

الحاجة الإنسانية (Need):

هى الحافز الذى يوقظ ويبقى على النشاط الإنسانى، وهى التى تحدد الإتجاه العام لسلوك الإنسان الفرد. وهى الجزء غير المرئى من الحض أو ما يسمى بالدافع النفسى الذى يوجه المرء نحو هدف ما.

ويعتقد العديد من علماء النفس أن هناك نوعين من الحاجات:

الحاجات الأولية:

وهى فطرية أو مركوزة أو لا تتطلب أن يتعلمها الإنسان (Unlearned). الحاجات للطعام والمأوى والمشرب هى أمثلة لذلك.

الحاجات الثانوية:

هى حاجات تتطلب التعلم (Learned). الحاجات للجاه والنفوذ (Power) والإنجاز (Achievement) والإنتساب (Affiliation) هى نماذج لذلك»*(١).

ونود أن نلفت الانتباه والتركيز بشدة على أن كلمة «الثانوية» هنا لاتعنى إلا أنها تلى «الأولية» ولا تعنى على الإطلاق عدم حاجة الإنسان الحيوية والماسة إليها ليصبح إنساناً حقيقياً.

بعض النظريات المتعلقة بالشخصية الإنسانية والحاجات الإنسانية:

أولاً: هناك العديد من النظريات المتعلقة بالشخصية الإنسانية والحاجات الإنسانية مثل:

- نظرية السمات النفسية TRAIT THEORY.

- النظرية السلوكية / BEHAVIORAL COGNITION BEHAVIORISM.

---

١) مابين العلامتين (**) هو تعريب بتصرف من المرجع السابق، صـ٣٨٠.

- نظريـــة القـــوى المحركـــة النفســـية PSYCHODYNAMIC THEORY.

- المقاربة الإنسانية HUMANISTIC APPROACH.

وحيث لايتسع المجال ولا يحتمل الدخول فـــى تفاصـــيل ماســـبق مـــن نظريات فسوف نذكر القليل عن المقاربة الإنسانية بإيجاز شديد حيـــث تقـــول بالصعوبة النسبية فى توقع الشخصية، وتؤكد على أن ما هو أكثر أهمية للناس هى الكيفية التى يكتسبون بها أو لا يفقدون فرديتهم الذاتيـــة، ويحققـــون بهـــا إمكاناتهم الإنسانية.

البشر الأصحاء فى نظر أصحاب المقاربة الإنسانية لعلم النفس يـــودون أن يشعروا بحرية الاختيار، وحرية توجيه حياتهم الخاصة بدلاً من الوجـــود مثل الرهائن أو شخصيات مسرح العرائس التى تتدافعها المحفـــزات تـــارة، وخلجات اللاوعى تارة أخرى*[1].

«وأقترح (ابراهام ماســـلو ١٩٠٨ - ١٩٧٠) أحـــد رجـــال المقاربـــة الإنسانية وجود تسلسل هرمـــى (تراتبيـــة) للحاجـــات (HERARCY OF NEEDS) توجد فيه الحاجات النفسية ذات المرتبة الأدنى عند القاع، وفوقها تأتى الحاجة للأمن، أما الحاجة للإرتباط والحب فهى أعلى، والحاجـــة إلـــى الاحترام أعلى من كل ما سبق»[2].

«يؤمن (ماسلو) بأن الناس سوف يناضلون مـــن أجـــل الحاجـــات ذات المرتبة الأعلى (مثلاً من أجل نشدان الاحترام، أو الإنجاز الفنى) بعدما تكون الحاجات ذات المرتبة الأدنى قد أشبعت. ويمكن القول على وجه العموم بقدر

---

١) مابين العلامتين (**) تعريب بتصرف مـــن Gleitman basic psychology 3 rd edition. norton & co., norton .صـــ٤٥٠- ٤٨٤.

٢) المرجع السابق، صـــ٤٨٥.

كاف من الإقناع: أن الحاجة الملحة إلى كتابة الشعر عادة ما تتراجع بعيداً إلى الوراء، إذا لم يكن المرء قد تناول طعاماً لعدة أيام»[1].

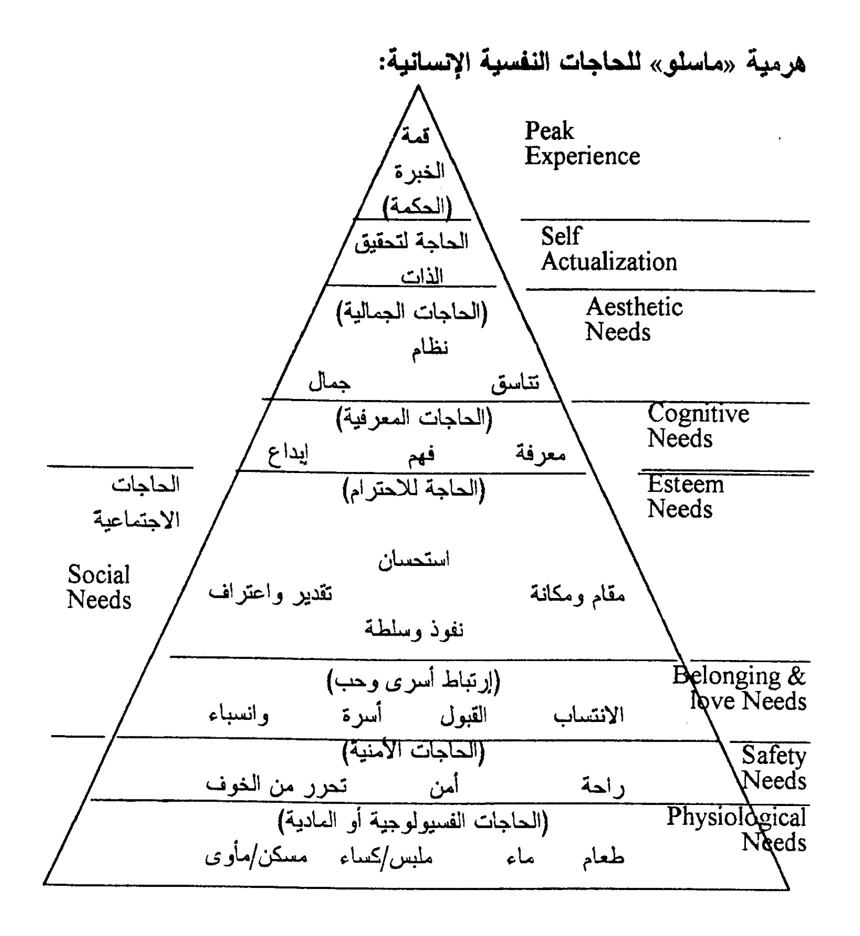
وما سبق لايعنى عدم حدوث استثناءات فقد أشار «ماسلو» إلى وجـــود مثل هذه الاستثناءات مثل أن يفضل أحد الفنانين الجوع القاتل على أن يتخلى عن الشعر أو الرسم، وكثيرا من الشهداء يصرح ويعلن عن إيمانه على الرغم من الألم والمعاناة التى يتعرض لها بسبب ذلك.

لكن الأمر فى النهاية، وطبقاً لإفتراضات «ماسلو» فإن الحاجـــة التـــى على قمة الهرم الخاص بها - وهى الحاجة إلى «تحقيق الـــذات» - ســـوف تحظى بالإهتمام الأولى والرئيسى فقط عندما ينتهى المرء مـــن تلبيـــة كـــل الحاجات الأخرى الواقعة تحت هذه القمة فى هرمية الحاجات.

---

١) المرجع السابق، صـــ٤٨٥.

هرمية «ماسلو» للحاجات النفسية الإنسانية:



تعريفات[1] ضرورية لأصناف الحاجات الإنسانية:

أ- الحاجات الفسيولوجية / المادية PHYSIOLOGICAL NEEDS هي المطالب الأساسية اللازمة للبقاء مثل الطعام والكساء والماء والمأوى.

ب- الحاجات الأمنية SAFETY NEEDS هي التي توفر البقاء والأمن:

١- البقاء: فقد نزلت الشرائع وصممت القوانين من أجل الحفاظ على الحياة.

٢- الأمن:

(أ) الأمن الفسيولوجي:

معدات الأمن الصناعي ووسائل الوقاية من الأخطار، والتأمين ضد حوادث العمل...

(ب) الأمن النفسي:

ضمان العمل والوظيفة من خلال مناخ عمل يمكن التنبؤ به. ولسنا في حاجة إلى التشديد على بديهية عدم العدوان على حياة الناس من جهة السلطات الأعلى دستورياً.

جـ- الحاجات للإرتباط والانتماء والحب BELONGING & LOVE NEEDS هي الحاجات التي تستوفي ويمكن إشباعها من خلال التفاعل الخلاق والحاوي للمضمون والمعنى مع الآخر.

د- الحاجات للاحترام: ESTEEM NEEDS هي الحاجات للشعور بأهمية الذات واحترام الذات. الحاجات للإحترام هي حاجات ذات طبيعة نفسية بشكل يفوق كثيراً الحاجات السابق ذكرها (أ، ب، جـ). قد تعطي للمرء الغذاء والكساء والمأوى... ومع ذلك فإن الإحترام الذي ينظر به الناس

---

١) جميع هذه التعريفات منقولة بتعريب وتصرف من: «Modern human relations....» ، مرجع سابق، صـ ٤٠- ٤٣.

لأنفسهم يتعلق فى معظمه بما يسمحوا هم لأنفسهم بالاعتقاد فيه. عندما يطرى الرئيس عمل مرؤوس فإذا اعتقد الأخير أن ما قاله الرئيس هـــو مجرد إطراء عابر وأن الرئيس لا يعنى ذلك فعلاً فلن يمــلأ الإطـــراء ويشبع الحاجة للإحترام. لكن الإطراء سوف يتحول إلى "محرّض" على زيادة الأداء وإرتفاع مستواه إذا إعتقد المرؤوس أن الإطراء حقيقى وأن الرئيس يعنيه حقاً.

ويمكن تفصيل بعض الحاجات إلى الإحترام إلى:

١ – **المقام / الهيبة** (PRESTIGE):

وهى التى تحمل معها وتؤدى إلى الإحترام والمكانة.

٢ – **النفوذ** (POWER):

وهو القدرة على التأثير على سلوك الآخرين، أو خلـــق الســـلوك المراد من الآخرين أن يسلكوه. يتأتى النفوذ من «المنصـــب» أو الموقع الذى يشغله الفرد داخل السلم الوظيفى فى العمل، أو يستمد النفوذ من خلال «شخصية» الفرد أو «سلوكه».

(هـــ)– الحاجات لتحقيـــق الـــذات (SELF ACTUALIZATION NEEDS):

وحيث أن الناس تسد وتشبع هذه الحاجات بطرائق ووسائل شديدة التنوع والإختلاف، فما يعرفه علماء السلوك عنها هو الأقل مقارنة بالحاجـــات الأخرى التى تمثل الدرجات الأدنى فى هرمية الحاجات الإنسانية.

لكن الأبحاث المتعلقة بالحاجات إلى تحقيق الذات أظهرت نوعين من الحاجات فى هذا الصدد:

١ – الكفاءة / الأهلية (COMPETENCE):

وتتضمن التحكم والسيطرة على كل عوامل مناخ العمل المحيط بالإنسان.

٢ – الإنجاز (ACHIEVEMENT):

وهى الرغبة فى الوصول إلى والحصول على الأهداف.

ثانياً: نظرية هيرزبرج HERZBERG THEORY:

ويطلق على هذه النظرية مسمى:

نظرية العنصرين الاثنين THE TWO FACTORS THEORY:

نظرية العنصرين الاثنين للحاجات هى نتيجة مباشرة للأبحاث التى قام بها «هيرزبرج» ومساعدوه فيما يخص الرضا عن الوظيفة والإنتاجية فى عينه تبلغ (٢٠٠) مائتى محاسب ومهندس(١).

طُلب من كل واحد من أفراد العينة أن يفكر فى الوقت الذى يشعر فيه/ تشعر فيه بإمتنان ورضا تجاه وظيفته / وظيفتها، والوقت الذى يشعر فيه / تشعر فيه بسوء وعدم رضا تجاه وظيفته / وظيفتها. وجد الباحثون أن الموظفين أعطوا توصيفات لأنواع مختلفة من الظروف التى تقود إلى مشاعر جيدة أو سيئة. قاد ذلك «هيرزبرج» إلى نتيجة تقول أن «الحض» يدخل فى تكوينه عنصران:

العنصر الأول: الأحوال الصحية (HYGIENE).

العنصر الثانى: المحرضات (MOTIVATIORS).

العنصر الأول:

عوامل الأحوال الصحية HYGIENE FACTORS.

العوامل المصاحبة للأحاسيس السيئة (تجاه الوظيفة) أطلق عليها «هيرزبرج» عوامل الأحوال الصحية. تشمل هذه العوامل:

* الأجر.
* اهتمام الرؤساء الفنيين.
* ظروف العمل.

---

١) مستقاة من "MODERN HUMAN" مرجع سابق، صـ٤٧، عن
Fredreck Herzberg, Bernard Nausner & Barbara Bloch. synderman "The motivation to work" Ny: John willy & sons inc. 1959.

* سياسة الشركة وأسلوب إدارتها.
* العلاقات ما بين الأفراد.

عندما سئل الأفراد (موضوع البحث) عن ما يجعلهم يشعرون بالتعاسة البالغة تجاه وظيفتهم شملت إجاباتهم المتطابقة: «أنا بالفعل غير راض عن المرتب الذى أتقاضاه، إنه منخفض للغاية»، «رئيسى فى العمل مشغول دائماً للغاية بحيث لا يمكنه تقديم أية مشورة فنية لى»، «ظروف العمل المحيطة بنا هنا هى فى الحقيقة سيئة». كل الإجابات ذات شيء واحد مشترك، كلها تتعلق بالمناخ الذى يجرى بداخله العمل.

أطلق «هرزبرج» على هذه العوامل المتعلقة بمناخ العمل إسم «عوامل الأحوال الصحية» لأنها تشبه «الأحوال الصحية البدنية» من جهة أنها عندما تلبى وتُشبع تمنع التآكل والانهيار، لكنها لا تقود إلى النمو. مثلاً، إذا قمت بتنظيف أسنانك بفرشاة الأسنان (وهى خطوة من الأحوال الصحية الجسدية) فذلك يمكنك من منع المزيد من التسوس، لكن أسنانك لن تصبح أقوى مما هى عليه، كما لن تعود الأسنان المتآكلة إلى شكلها الأصلى. وهنا فلديك اختياران: تنظيف أسنانك بالفرشاة ومنع المزيد من التآكل بها أو ألا تغسل أسنانك لينتهى بك الأمر بفقدانها. بالقياس على ذلك شعر "هرزبرج" إنك إن أعطيت الناس العوامل التى أسماها (الأحوال الصحية) فإنك لم تعطهم «الحض» ولكنك منعت «عدم الرضا». على ذلك فعوامل الأحوال الصحية لن تؤدى إلى زيادة الإنتاجية لكنها سوف تمنع هبوطها[1].

العنصر الثانى:

المحرضات MOTIVATORS:

هى العوامل المرتبطة بالمشاعر الإيجابية تجاه الوظيفة أو العمل،

---

١) المرجع السابق، صـ ٤٧، بتصرف.

ويطلق عليها «هيرزبرج» مسمى «المحرضات» الأمثلة على هذه العوامـل هى:

الاعتراف والتقدير، والترقى والتقدم، واحتمالات النمو والتوسع.

عندما سئل الأفراد (موضوع البحث) عن ما الذى يجعلهـم يشـعرون بالإرتياح البالغ تجاه وظائفهم، شملت إجاباتهم النموذجية، «وظيفتى تعطينـى شعوراً بالإنجاز»، و«أنا أحب الاعتراف والتقدير الذى أحصل عليـه عنـد إنجاز نصيبى من العمل بشكل طيب»، و«العمل هنا مثير بصورة عامة». كل هذه الإجابات تشترك فى شىء واحد: إنها تتعلق بالعمل ذاته، إضافة إلى ذلك فإنها: ذات طبيعة نفسية وتختص بالرضا لإشـباع المسـتوى الأعلـى مـن الحاجات الإنسانية.

أطلـق «هرزبـرج» علـى هـذه العوامـل إسـم المحرضـات (MOTIVATORS) لأنه شعر أنها السبب وراء الإرتفاع فى الأداء.

كما يقترح «هرزبرج» أن الحاجات الفسيولوجية والأمنية والحاجات إلى الإنتساب والحب (الاجتماعية) وإلى حد ما الحاجات إلى الإحترام يمكن توفير الرضا بها وسد الاحتياج إليها عن طريق «العوامل الصـحية». أمـا بقيـة الحاجات إلى الاحترام صعوداً إلى الحاجات لتحقيق الذات فلا يمكن الحصول على إشباعها إلا من خلال «المحرضات» أى من خلال العمل ذاته.

عوامل الأحوال الصحية (تتعلق بمناخ العمل)	المحرضات (العمل فى ذاته)
• المرتب	• الإعتراف والتقدير (Recognition)
• إهتمام الرؤساء الفنيين	• الترقى فى سلم العمل (Advancement)
• ظروف العمل	• احتمـالات النمـو (Possibility of growth)
• سياسـات الشـركة وأسـلوب إدارتها	• الإنجاز (Achievement)
• العلاقات البينية بين الأفراد	• العمل فى ذاته (work itself)

ألا ترى معى هنا أن جميع الحاجات الإنسانية لاترى ولا تتكشف إلا من خلال العمل (بوصفه من أهم الأسباب) وبسبب منه، وأن العمل فى ذاته هو الإنكشاف الفعلى للحاجات العليا للإنسان التى تتحقق بها إنسانيته.

ثالثاً: الحاجات الإنسانية فى فكر السلف:

من المثير للإعجاب أن علماء الفقه المسلمين قد سبقوا أصحاب المقاربة الإنسانية فى موضوع هرمية الحاجات الإنسانية. وسوف نعود إلى بعض الأساس النظرى حتى يتسنى لنا فهم كيف وصل الفقهاء المسلمون إلى ذلك.

* مصادر التشريع الإسلامى هى إما أن تكون:

أ- نصية.

ب- أو مقيسة على النص.

والمصادر النصية تقتصر على

١- القرآن الكريم.

٢- السنة النبوية.

أما المصادر غير النصية فهى مصادر أو أدلة أحكام لا تستند إلى نص، وإنما تحل محل النص وتقوم مقامة ومنها على سبيل المثال: الإجماع والقياس... والمصالح المرسلة.

المصالح المرسله:

هى تلك المصالح التى لم يرد بشأنها حكم شرعى أى نص فى الكتاب أو السنة النبوية، أو فى المصادر غير النصية مثل الإجماع أو القياس. أو هى تلك المصالح التى لم يقم دليل على أن الشارع (المشرع) اعتبرها أو ألغاها.

المصالح المرسلة إذن هى مصالح:

أ- لم يرد بشأنها حكم شرعى أى نص فى القرآن أو فى سنة الرسول ﷺ.

ب- لم يرد بشأنها حكم فى الإجماع أو فى القياس ... أى فى جميع المصادر غير النصية.

جـ- لم يقم دليل على أن الشارع وضعها فى الاعتبار أو أمر بإلغائها.

لذلك سميت بالمرسلة. فالمصلحة التى يتوهمها الناس، وثبت أن الشارع «لايراها كذلك» أى «لا يرى بها خيراً لهم» فلا تجلب لهم نفعاً، ولا ترد عنهم ضراً، ولا تخرجهم من حرج فلا تعتبر «مرسلة» وإنما تعتبر «ملغاة». كذلك المصلحة التى احتفل بها الشارع فقرر لها حكماً فهى فى غير حاجة إلى حكم جديد.

أما ما عدا ذلك فهى مصالح لابد لها من حكم شرعى يحققها للمسلمين ويحفظها لهم ولذلك فهى تتطلب من المجتهدين رأياً. ولكن أكل مصلحة تبرر إصدار حكم لها؟ أى تشريع ينظمها؟. اشترط الإمام الغزالى لهذه المصالح شروطاً ثلاثة.

أ- أن تكون «قطعية» فلا يكفى أن تكون متوهمة أو ظنية.

ب- أن تكون «كلية» أى لاتكون حالة جماعة بعينها، أو حالة أقلية.

جـ- ألا يقوم بين الحكم الذى سيصدر فى شأن هذه المصلحة تعارض وبين حكم شرعى ثبت بالنص أو بالإجماع أو بالقياس....

المصلحة التى يجوز إصدار حكم بشأنها هى التى تحقق مقاصد الشرع ومقاصد الشرع، عند الغزالى هى: مايحفظ على المسلمين دينهم ونفسهم وعقلهم ومالهم ونسلهم.

وقد قدم بعض الصحابة المصالح حتى على النص، مثل موقف ابن الخطاب من سهم المؤلفة قلوبهم فى الزكاة (أوقف هذا السهم قائلاً: لقد كنا نتألف حينما كنا ضعافاً، وقد أغنانا الله عنهم، فلا حق لهم).

ما يعننا هنا أن: ليست المصالح كلها فى درجة واحدة، فالمصالح إما أن تكون:

أ- ضرورية (الضرورات)

وهى التى لايستغنى عنها الناس، والتى يؤدى إهمالها إلى إفساد أمور الناس وتضاربها. والضرورات التى قلنا أنها مقصد الشرع هى: حفظ دين الناس ونفسهم وعقلهم ومالهم ونسلهم.

ب- حاجية (الحاجيات).

وهى التى دون الضرورات ولكنها تخفف عن الناس الحرج وتجعل حياتهم أيسر وأقل حملاً. فمثل أن حفظ النفس فى المرتبة الأولى هو ضرورة بقائها سليمة، فإن الحاجى هو إعطاؤها حريتها التى هى نقيض العبودية.

جـ- تحسينية (التحسينات):

وهى التى ترجع إلى مكارم الأخلاق كالطهارة، وأخذ الزينة، وتجنب الإسراف والتقتير.

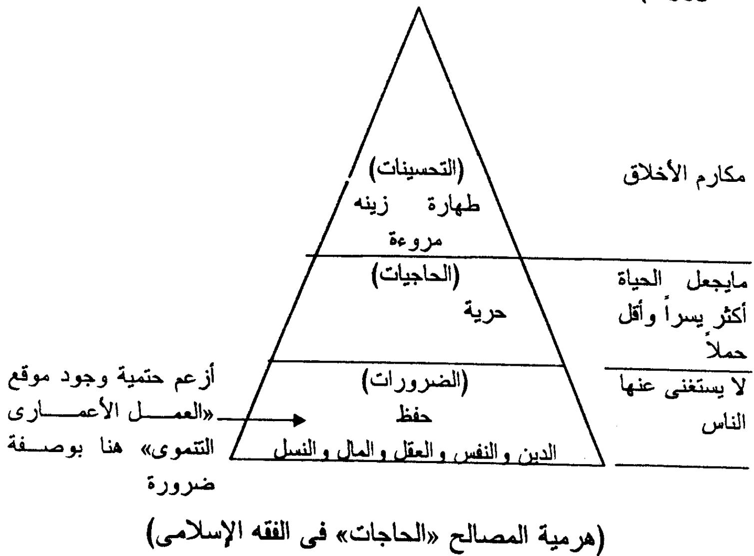
والذين يبررون الأخذ بالمصالح يؤيدون رأيهم بأن كثيراً من أحكام القرآن جاءت معللة أى ذكرت فيها المصالح التى جاءت تلك الأحكام لتحقيقها. وآية تحريم الخمر والميسر نصت على أن الشيطان يريد أن يوقع العداوة والبغضاء بين المسلمين فى الخمر والميسر، وأن يصدهم عن الصلاة وعن ذكر الله *[1].

وينبغى علينا فى هذا المضمار أن نركز على أن "العلاقة بين هذه المراتب الثلاث تقوم على أن الأولى هى الأصل والأساس، وأن الثانية مكملة للأولى، وأن الثالثة مجمله ومزينة للأولى والثانية، وبذلك فلو فرض إختلال الضرورى فإن الحاجى والتحسينى يختلان بإختلاله. لكن إذا إختل التحسينى

---

١) مابين العلامتين (**) من: مدخل الفقه الإسلامى – محمد سلام مدكور، صـ٩٤.

إختل الحاجي بنسبة ما، وإن إختل الحاجي إختل الضروري بنسبة ما أيضـــاً. وليس معنى أن الحاجي والتحسيني يلزمهما أن يليا الضــــروري أنـــه يمكـــن الاستغناء عنهما، فهما مرتبطان بالضروري إرتباط الفرع بالأصل، وإذا كان للأصل أن يقوم بدون الفرع إلا أنه يظل ناقصـــاً، فالضــــروري رغـــم أنـــه ضروري إلا أنه يختل بإختلال مكملاته. وليس معنى أن الحاجي والتحســـيني يليان مرتبة الضروري أنهما يتبعانه بصورة لاحقه دائماً، وإنما قـــد يأتيـــان سابقين له، أو مقترنين به، أو تابعين له، وبذا فهما يدوران حواليـــه (فمـــثلاً هناك حالات تكون فيها حرية الإنسان أثمن من حياته فيضحى بحياتـــه فـــى سبيل حريته، أو فى سبيل الدفاع عن مبدأ، فهنا يصبح الحاجي مقـــدّم علـــى الضروري)»[1].



(هرمية المصالح «الحاجات» فى الفقه الإسلامى)

---

١) القيم الضرورية ومقاصد التشريع الإسلامى: د. فهمى محمد علوان – الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٩، صـــ١٠١.

إذا كان من الضرورى حفظ الدين والنفس والعقل والمال والنسل فلا مهرب من أن العمل الإنتاجى والإعمارى والتنموى هى من أول الضرورات حيث إن مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وكيف تحفظ الدين من غير حفظ النفس ومن دون أن توفر لها المأكل والمشرب والملبس والمسكن والأمن، وكيف تحفظ المسجد بدون المدفع، ولا وجود لوسيلة مشروعة لتوفير ماسبق اجمعت عليها الشرائع السماوية والعقول البشرية بقدر ما أجمعت على وسيلة العمل التنموى والإعمارى والإنتاجى. بذلك يصبح العمل ضرورة ، وبذلك يصبح إقامة فقه للعمل – بالمعنى الإصطلاحى واللغوى لكلمة فقه – ضرورة من أول الضرورات لكى يحتل العمل مكانته التى أرادها له الإسلام، وهى المكانة التى يتبوأها فى كل مكان خارج عالم الإسلام (قد نستثنى ماليزيا من هذا التعميم). كما أنه إذا صح الزعم بأن الحياة قد خلقت للعمل كما قلنا سابقاً، وحيث أن حفظ الحياة (النفس) هو من الضرورات يصبح العمل أيضاً من الضرورات التى بدونها قد تختفى الحياة وتندثر (إلا إذا سمينا حياة الفقر المدقع والعيش على حساب الغير حياة).

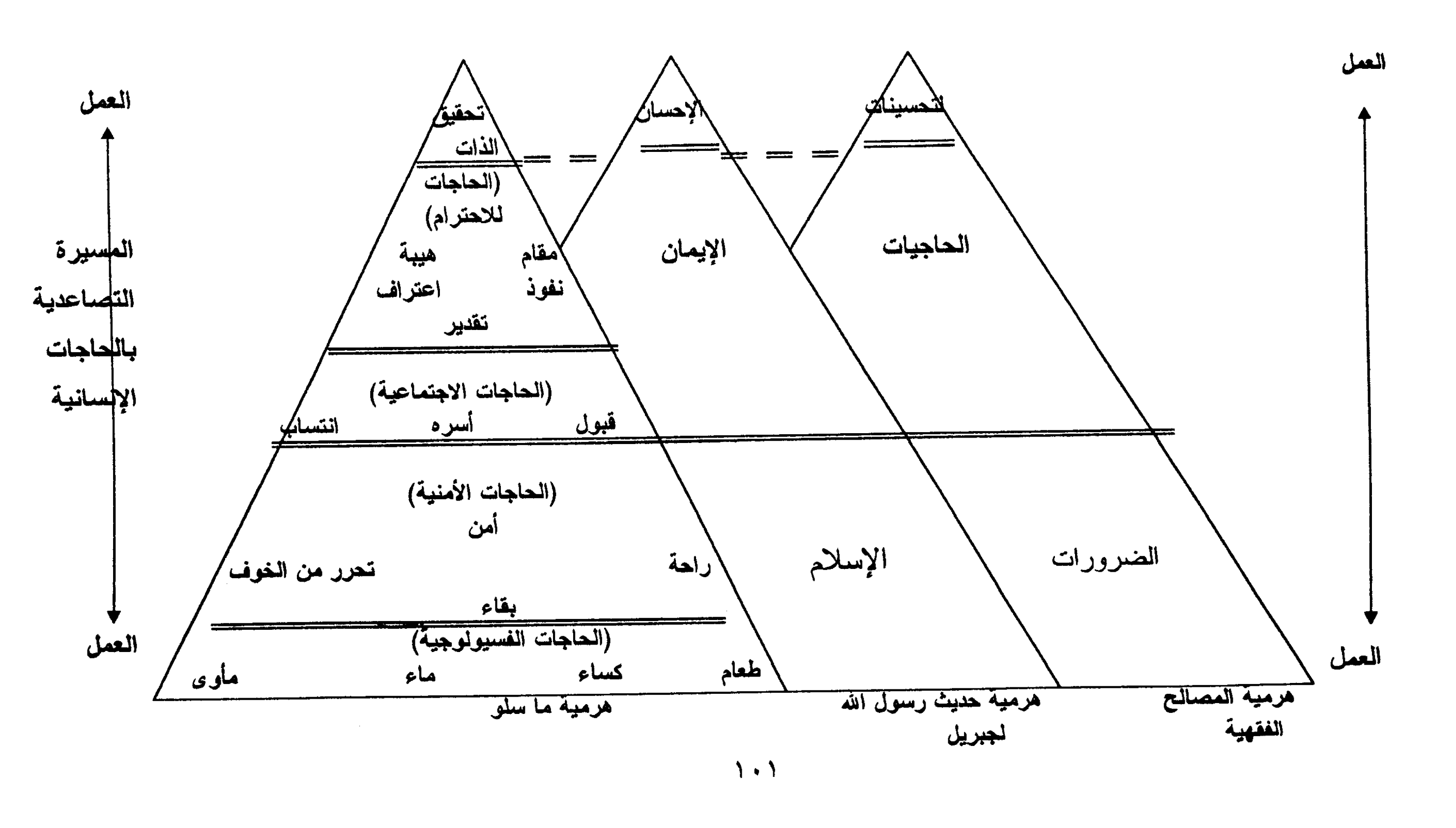
والآن هل أتضح دور العمل الرئيسى والهام فى الترقى والتصاعد والكشف عن الحاجات النفسية والأساسية للإنسان؟

العمل هو الوسيلة الوحيدة والشرعية والإنسانية للحصول على الحاجات الفسيولوجية المادية اللازمة لبقاء الإنسان وحياته، ومع إتساع دائرة العمل أفقياً لتشمل الآخر ورأسياً لتحقيق بقية الحاجات العليا يتسنى للإنسان الفرد إشباع هذه الحاجات. بل يمكن القول إنه لاتوجد وسيلة أو أداه أخرى يمكن بها تحقيق الحاجات الإنسانية بنفس الفاعلية إلا العمل، وهو فى تصاعده يكشف للإنسان عن حاجاته العليا خلال المجالات والإفاق والدوائر التى يفتحها العمل ليدخل منها الإنسان كاشفاً عن حاجاته وملبياً لها وصولاً إلى تحقيق ذاته والحصول على الحكمة.

لانحتاج الآن إلى جهد كبير لكى نتيقن أن العمل هو المحرك والرافعة فى المسيرة التصاعدية فى سلم الحاجات الإنسانية وصولاً إلى تحقيق الذات وإلى الحكمة والرشد وإلى التخلق بأخلاق العليم الحكيم.

وهنا هل يمكننا القبول بالمقارنة والمطابقة التالية؟:

انظر شكل الأهرام الثلاثة


العمل
العمل
التحسينات
الحاجيات
الضروريات
هرمية المصالح الفقهية
الإحسان
الإيمان
الإسلام
هرمية حديث رسول الله لجبريل
تحقيق الذات
(الحاجات للاحترام)
مقام
هيبة
نفوذ
اعتراف
تقدير
(الحاجات الاجتماعية)
قبول
أسره
انتساب
(الحاجات الأمنية)
أمن
راحة
تحرر من الخوف
بقاء
(الحاجات الفسيولوجية)
طعام
كساء
ماء
مأوى
هرمية ما سلو
العمل
المسيرة التصاعدية بالحاجات الإنسانية
العمل

وهل يمكننا القول بأن:

أ- **العمل فى الإسلام:** هو العمل على تحقيق الحاجات الفسيولوجية والأمنية وهو مقياس الإسلام.

ب- **العمل فى الإيمان:** هو العمل على إظهار وتلبية الحاجات الاجتماعية والحاجات للاحترام وقدر من تحقيق الذات وهو مقياس الإيمان.

جـ- **العمل فى الإحسان:** هو العمل على تحقيق الذات والوصول إلى الحكمة وهو مقياس الإحسان.

ولمزيد من الإيضاح نقول:

أ- الإسلام:

العمل فى الإسلام:

١- الشكل:

سعى على الرزق للحصول على الحاجات الأساسية،

٢- الدائرة:

دائرة العمل تشمل الذات الفردية ومن تعول.

٣- المساءلة (حدود المسئولية):

على أعمال الجوارح الظاهرة، بعد أداء الشهادتين ودخول الإسلام. محتوى القلب (النية) متروك لله الذى يعلم السر وأخفى. وحديث الرسول ﷺ عندما غضب من الصحابى الذى قتل رجلاً بعد أن نطق بالشهادتين قائلاً له: «هل شققت عن صدره» والسابق ذكره مشهور.

٤- الحاجات التى يسدها العمل بالتعريف السابق:

*** الحاجات الفسيولوجية:**

السعى على الرزق الهدف الأساسى منه هو سد احتياجات الإنسان الفرد، وسد الحاجات الأساسية لمن يعولهم من طعام وكساء وماء ومأوى،

وهى الحاجات الأساسية اللازمة للبقاء والتى حددها القرآن بوضوح قاطع فى سورة طه

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾....

*** الحاجات الأمنية:**

بتوفير الحاجات الفسيولوجية يتسنى للإنسان سد الحاجة للبقاء، والتحرر من الخوف من الموت جوعاً أو عطشاً، ومن الخوف من قادم الإيام، وتتوافر له القدرة – إلى حد ما– على الدفاع عن نفسه ضد الأخطار الأخـــرى. وقــد أمتن الله على قريش بذلك فى قوله:

﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾[1].

وينبغى أن ننوه هنا، أن قعود الإنسان عن السعى على الرزق يؤدى به إلى الهلاك المحتوم، وإن استطاع البقاء فسوف يؤدى قعوده عن العمل إلـــى حجب كنوز الطبيعة السخية، ونعم الله التى لا تحصى، حيث ستظل مطمورة فى إنتظار مع يعمل على استخراجها من مكامنها. حجب هذه النعم وســترها عن الإنتفاع بها، يعنى كفرانها، أى كفران النعمة. نتيجة كفران النعم هى

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾[2].

---

١) (٤) قريش.
٢) (١١٢) النحل.

القعود عن السعى على الرزق، يعنى كفران النعم، يعنى لباس الجوع والخوف، يعنى عدم الإشباع كما يعنى افتقاد الحاجات الفسيولوجية والحاجات للأمن.

هل نعى الآن معنى ضياع الإسلام؟

ب- الإيمان:

- العمل فى الإيمان:

١- الشكل:

سعى على الرزق، ثم تتسع دائرة العمل لتحقيق فائض قيمة من هذا العمل، يستظل به الآخر من كل الأنواع.

٢- الدائرة:

الذات الفردية، والآخر اللصيق، والآخر صاحب الأخوة فى الدين، والآخر النظير فى الخلق وفى الإخوة الإنسانية.

٣- المساءلة:

الإيمان ما وقر فى القلب (النية) وصدقه العمل. المساءلة هنا على النية بالإضافة إلى العمل. قوم قالوا نحسن الظن بالله ولم يعملوا فقد كذبوا، لو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا العمل كما قال الرسول ﷺ.

٤- الحاجات التى يسدها العمل بالتعريف السابق:

- **الحاجات الاجتماعية:**

العمل من أجل الآخر، وأن تحتضن الآخر بنتاج عملك وسعيك وكذلك هو الاستيفاء الحقيقى والأصيل لتلك الحاجات الاجتماعية، بمالا يحتاج إلى مزيد تفسير.

- **الحاجات للاحترام:**

أفضل صفة وأكثرها احتراماً يمكن أن ينعت بها الإنسان فى الإسلام

هى «عبد الله » والحق تبارك وتعالى حين يتحدث عن النبى ﷺ فى معنى من معانى التكريم والإمتنان والاحتفاء، كان سبحانه يطلق على النبى هذا النعت:

﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا ﴾[1].

لذلك فإن «الأعبد» هو الأكثر احتراماً بين الشخصين.

روى عن النبى ﷺ أنه رأى رجلاً يتحامل على النـــاس (أى أن النـــاس تقوم بحمل إعالته)، فسأل عنه فقيل له: هذا عابدنا!، فقـــال صـــلى الله عليـــه وسلم: «ومن يؤكله؟ قالوا: كلنا يؤكله. قال: كلكم خير منه».

وروى إن مثله دخل على عمر بن الخطاب، فسأل عمر كما سأل رسول الله ﷺ، فقالوا: أخوه يعمل لرزقه ورزق عياله. قال عمر ﷺ: أخوه أعبد منه.

ونقل الجوزى فى تلبيس إبليس، فى مناقب عمر بن الخطاب، أنه كان إذا رأى غلاماً فأعجبه قال: هل له من حرفة؟ فإن قيل: لا، قال: عمر ﷺ: سقط من عينى.

وروى عنه قولـــه: «يا معشر الفقراء: إرفعوا رؤوسكم، فقـــد وضـــح الطريق، فأستبقوا الخيرات، ولا تكونوا عالة على المسلمين»[2].

العمل موجود وحاضر ومتاح، فلا مكان لرؤوس مخفوضة.

*** الحاجات لتحقيق الذات:**

العمل فى الإيمان يؤدى إلى جزء أو بعض من تحقيق الذات، مثل مـــا على جانب الكفاية والأهلية.

يقول د. عيسى عبده: «الكفاية والمقدرة هما معيار **أهلية الفرد**، وبـــذلك كفل الإسلام تحقيق مبدأ تكافؤ الفرص بين الكافة وأساس **هذا المبدأ** تجريم أى

---

١) (١) الإسراء.

٢) العمل فى الإسلام – مرجع سابق، صـــ٧١.

امتياز يستمده مدّعيه من حكم القانون، أو من سيطرة ذوى السلطان، وهدفه ضمان حرية الفرد فى العمل، وتحرير السعى المشروع من كل عقبة تعوق إنطلاقه، وحق كل مواطن فى عمل يتناسب مع كفايته واستعداده، ومع العلم الذى تحصّل عليه. وأن العمل فضلاً عن أهميته الاقتصادية فى حياة الإنسان، فهو تأكيد للوجود الإنسانى ذاته»[1].

عن أبى ذر الغفارى ﷺ قال: «قلت: يارسول الله ألا تستعملنى (يعينه فى منصب)؟ قال: فضرب يده على منكبى، ثم قال: يا أبا ذر، إنك ضعيف، وإنها إمارة، وإنها يوم القيامة خزى وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذى عليه منها»[2].

الرسول يقول لأبى ذر: إنك ضعيف!! وأبو ذر هو من هو. لكن الرسول يتحدث هنا عن الكفاية والأهلية اللازمة للقيام بأعباء هذه الوظيفة. قالت ابنة شعيب أو الرجل الصالح لأبيها عن موسى:

﴿ يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾[3].

«القوى» فى هذه الآية هى عكس «الضعيف» فى حديث الرسول لأبى ذر. الكفاية والأهلية من لوازم الوظيفة، حيث الوظيفة هنا عمل يتعلق بالآخر، قيادته ورزقه وحريته وسلامته ومصيره... الضعف وعدم الأهلية والكفاية للوظيفة ترقى إلى مستوى الخيانة للآخر وللمجتمع.

ورغم أن معيار التفاضل يشمل أيضاً التقوى

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ ﴾[4]،

---

١) المرجع السابق، صـ٣٦.
٢) رواه مسلم.
٣) (٢٦) القصص.
٤) (١٣) الحجرات.

لكن الذى يحدد مقدار التقوى لدى الإنسان هو الله والله وحده لقوله:

﴿ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ .....﴾،

فليس الإنسان بقادر على أن يحدد مقدار تقواه، لأن ذلك يخرج عن النطـاق الكمى، ويستحيل على المقارنة بالآخر، ولذلك نهى القرآن عن ذلك بقوله:

﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾[1].

ومن نافلة القول إن فى ذلك أيضاً سداً لباب الغرور والتعالى على الخلق، إذا كان للإنسان أن يزكى نفسه.

لكن على جانب الكفاية والأهلية للعمل - نظراً لخطورة دور العمل فى حياة الناس - وهى كما أشرنا إحدى حاجات الإنسان لتحقيق ذاتـه، فـيمكن للإنسان بل من اللازم له أن يقيس مدى كفايته وأهليته لعمل ما، ونظـراً لأن الحياة تتيح الفرصة للإنسان ليعرف مدى كفايته وأهليته، كما أن علوم الإدارة الحديثة للأعمال حالياً تنتج المعايير التى يمكن من خلالها قياس أهلية الإنسان وكفايته لوظيفة ما، عـن طريـق مـا يسـمى بمعـايير الأداء TARGET PERFORMANCE STANDARS)، وهنا لايوجد شـبهة تكبـر وتعـالى، أوتزكية للنفس بغير حق، ولاحرج عندما يقول إنسان أو يعرض نفسه ويبـين مؤهلاته (C.V.) على أنه ذو كفاية وأهلية لمنصب ما، بل أن الواجب عليـه فعل ذلك حتى لا يفوّت على المنصب وعلى المصلحة العامة فرصة الحصول على الكفاءة المناسبة. وقد فعل نبى الله يوسف عليه وعلى رسـولنا الصـلاة والسلام ذلك، عندما قدّم سيرته الذاتية إلى فرعون موضحاً توافر الشـروط الأولية (prerequisits) والكفاية والأهلية لشغل وظيفة القـائم علـى وزارة الخزانة والمخازن عندما قال:

---

١) (٣٢) النجم.

﴿ ٱجۡعَلۡنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴾[1]،

الحفظ والذاكرة والمحافظة والعلم والخبرة هى من أركان الكفايـــة والأهليـــة للقيام بأمر خزائن الدولة ولاحرج فى أن يصرح من يملك هذه المواصـــفات بذلك عن نفسه.

٣ – الإحسان:

– العمل فى الإحسان:

١ – الشكل:

العمل للعمل فى ذاته، لإنها إرادة الله.

٢ – الدائرة:

تتعدى الذات الفردية ومن تعول، وتتخطى الآخر بجميع صوره وأشكاله وردود أفعاله ناظراً إلى الله وحده، ومبتغياً وجهه، ومنه جل وعلا يعود إلـــى الفرد وإلى نفسه وإلى خلق الله وعياله.

٣ – المساءلة:

﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾[2].

٤ – الحاجات التى يسدها العمل بالتعريف السابق:

العمل بالتعريف السابق هو تحقيق للذات بالوجود الفعلى الحقيقى الممتد الذى لا يعتريه هلاك، فإذا كان النظر إلى وجه الله «كأنك تراه» فلا هـــلاك ولا فناء لأن

---

١) (٥٥) يوسف.

٢) (٦٠) الرحمن.

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾،

ولأن

﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾.

العمل فى الإحسان هو «فناء فى الله» بتعبير الصوفية، ثم هو «بقاء فى الله» بتحقيق الوجود الذاتى بين خلق الله وعياله، وبعد أن كنت راضياً عن الله يصبح الله راضياً عنك

﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾[1]،

وبعد أن كنت محباً لله، تصبح محبوباً من لدن الله

﴿ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2]،

فليس الشأن أن تكون محباً، بل الشأن أن تكون محبوباً.

---

١) (١١٩) المائدة.

٢) (١٩٥) البقرة.

الخلاصة:

بمقدار صحة القول «أن الناس تأكل لتعيش، لا تعيش لتأكل» حيث أن الطعام والشراب قد خلقا من أجل البقاء والحياة، لأنهما ضروريان لاستمرارهما. فمن الصحيح أيضاً أن الحياة ضرورية لبقاء الطعام والشراب بدون الحياة لا معنى للطعام ولا للشراب، وباستمرار الحياة، استمر الطعام والشراب، فلولا استمرار الحياة وبالتالى إستمرار الحاجة إلى الطعام والشراب، ما بقي الأخيران على سطح الأرض.

ومع تطور الحياة وارتقائها، ارتقى وتطور الطعام والشراب، فقد أدخلت التغييرات والتطورات والتحسينات على سلالات النبات، والحيوان والطير، فتغيرت مورثاتها، وزادت قدرتها على البقاء، وزادت مقاومتها للأمراض والآفات والتلف، وطاب مذاقها، وزاد حجمها ووزنها... كما تنوعت أساليب الطهي، بل وأصبحت هناك مدارس مختلفة للطهي والمذاقات (المطبخ الفرنسي، أو الإيطالى، أو التركى، أو الإيرانى، أو الهندى...) وتكاثرت الإضافات ومحسنات الطعم والمكونات وأنواع التوابل والبهارات.

كان لابد أيضاً من أن تكون الحاجة إلى الطعام والشراب حاجة فطرية (Unlearned) حتمية، لا تحتاج إلى تعليم أو تدريب. حيث مع بدء الحياة، تبدأ الحاجة إلى تناول الطعام والشراب على الفور، ثم من خلال استمرار الحياة التى يحفظها الطعام والشراب وارتقائها، يكتب البقاء والتطور للطعام والشراب.

الآن، إذا كانت الحياة -حسب زعمى- قد خلقت من أجل العمل التنموى الإعمارى لقوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ۚ ﴾[1]،

---

١) (٢) سورة الملك.

وقوله:

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[1].

فيصبح – بالقياس على جدلية الحياة والطعام والشراب السابقة – أن الحياة قد خلقت من أجل العمل، لأنها ضرورية لحدوثه، ويصبح من الصحيح أيضاً أن العمل ضرورى لبقاء الحياة. بدون العمل لامعنى للحياة، وباستمرار العمل تستمر الحياة، فبدون استمرار العمل مابقيت الحياة، ومع تطور العمل وإرتقائه تتطور وترتقى الحياة، وتتصاعد حاجاتها مع تصاعد العمل وإتساع دائرته. تنتقل حاجات الإنسان الحياتية وترتقى من الحاجات الفسيولوجية المادية، والحاجات إلى الأمن، صعوداً إلى الحاجة إلى الإحترام والحاجة إلى تحقيق الذات، مروراً بحاجاته الإجتماعية من إنتساب وارتباط وحاجاته المعرفية.

إذا لم يتصاعد العمل وتتسع دائرته متجاوزاً دائرة السعى على الرزق، سيظل الإنسان محصوراً فى حاجاته المادية الأساسية اللازمة لبقاء الحياة، ويصبح توفير الطعام والشراب والمأوى والملبس هو أكبر همه ومبلغ علمه، ولا يصبح هذا الإنسان باحثاً عن الانتماء إلى جماعة أو إلى الإحترام الذاتى (هل هذا هو مايحدث لإنسان العالم الثالث؟ وهل يحدث ذلك بقصد أم بدون قصد؟!)، وإن كان السعى على الرزق مطلوب ومرغوب وضرورى، لكنه يظل دون المستوى الإنسانى الذى من أجله خُلق خليفة الله.

إذا أتسعت دائرة العمل وإضافة القيمة وتوفير الفائض الذى يظلل الآخر، تبدأ حاجات الإنسان للآخر وللجماعة وللإنتساب فى التفتح معطية معنى وبعداً آخر للحياة، معنى أكبر وأشمل وأكمل، والرضا الناتج عن إشباع هذه الحاجات هو الرضا الحقيقى الذى لا يحصل للإنسان إلا بسد هذه الحاجات،... وهكذا حتى الوصول إلى إشباع الحاجة إلى تحقيق الذات، وهو طور أو مقام الإحسان فى زعمى.

---

١) (٦١) هود.

لذلك كان لابد فى البداية من أن تكون "الحاجات" هى من النوع الأولى (Primary Needs)، أى أنها مركوزة وفطرية (Innate)، ولا تتطلب التعلم (Unlearned)، مثل الحاجة للشراب والطعام والمأوى والكساء والأمن. هى فطرية تدفع إلى العمل فى أول مستوياته أى العمل على كسب الرزق، أو الأجر الذى يكفل استيفاء هذه الحاجات المادية الأساسية، وهو مجهود بدنى (فى أشكاله البدائية) لازم للحصول على هذه الحاجات، أو «شقاء» بالوصف القرآنى حيث عبر عنه كما أسلفنا

﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾[1]

الحاجات المادية الأساسية أو الفسيولوجية هى حاجات فطرية لازمه لاستمرار الحياة التى خلقت للعمل وهى التى تدفع إلى العمل لضمان البقاء، فيندفع الإنسان دون ما حاجة إلى التعلم، وبنداء من الفطرة إلى العمل وكسب الأجر اللازم للحصول على هذه الحاجات المركوزة داخل فطرته، ومن هنا تبدأ رحلة العمل التصاعدية، والتى بإرتقاء العمل وإتساع دائرته فى المستويين الرأسى والأفقى، تتفتح أمام الإنسان حاجاته الأعلى، التى لا يتسنى له اكتشافها والإحساس بالحاجة إليها إلا بعد أن يستوفى الحاجات الفطرية المادية (Physiological Needs)، ويدخل بالعمل وبه يفتح الباب إلى حياه أعلى تحتاج إلى الحاجات الثانوية التى تتطلب التعلم (Socondary Needs)، من مثل التفاعل مع الآخر، والعمل من أجله، والإحترام والمعرفة، تشوقاً للحصول على تحقيق الذات، ولا تعنى ثانوية هنا، إنها ثانوية فى الاحتياج إليها، إنما تعنى إنها غير فطرية أو غير مركوزة وتحتاج إلى التعلم (Learned Needs) والممارسة، لكن أهميتها من الحيوية بحيث لايكتمل بدونها تحقق وأكتمال المعنى الإنسانى داخل الذات الفردية.

---

١) (١١٧ - ١١٩) طه.

هكذا نفهم ويتضح لنا أن العمل هو الذى يكشف عن الضـــرورات ثـــم الحاجيات ثم التحسينات بالتعبير الفقهى الإسلامى، أو هو الذى يأخذ بخطـــام ناقة الحياة التى يركبها الإنسان ليرتقى بحاجاته من المســـتوى الفســـيولوجى تصاعداً إلى تحقيق الذات، أو النجاة من الهلاك والتحقق بالخلود عن طريـــق رؤية الله أو «كأنه» يراه فى طور الإحسان الذى أشار إليه رسول الله ﷺ .

وهنا أيضاً نفهم معنى أن الحياة قد خلقت من أجل العمل، وأن العمل هو مع العبادة أحد جناحى التحليق بالإنسان صعوداً من تثاقل المـــادة وأرضـــية الذات الفردية المنكفئة على نفسها، إلى سماء المعرفة والعبودية لله، والبقـــاء بالله فى الله، فلا هلاك ولا فناء، بل خلود وبقاء، وسمو وارتقاء

﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾[1].

* * *

---

١) (٢٧- ٣٠) الفجر.

الفصل الرابع
العمل والأخلاق والقيم

دور العمل فى الحراك القيمى:

العمل من أهم القوى الدافعة إلى التغيير فى منظومة القيم والأخلاقيات وحتى المشاعر الإنسانية السائدة:

الغرض من هذا الفصل هو بيان تأثير العمل وأثره على تغيير القيم والتحرك بها طبقاً للتغيرات فى مجال العمل وآفاقه، وأيضاً تأثيره على الأخلاقيات السائدة والحاكمة للمجتمع، وعلى العواطف والمشاعر والمخاوف والخلجات الإنسانية.

ومن المفارقة أن لدينا الكثير من المفكرين والمثقفين والمتعلمين الذين شنفوا أسماعنا، وسطروا الصفحات لنا بعبارات من قبيل "القوى العاملة"، والبروليتاريا، وحكم البروليتاريا، بل هناك من ذهب إلى الحديث عن ديكتاتورية البروليتاريا. ولم يتوقف أحد ليسأل نفسه: هل لدينا فعلاً بروليتاريا؟. يقول على شريعتى[1] فى مقارنة بيننا (العالم الثانى أو الثالث أو الجنوب..)، وبين العالم الأول: «هناك ذوو رؤية غالباً ماهى قائمة على الحساب والمصلحة، وينطلقون من مبدئية الكسب، وهنا ميالون غالباً إلى العاطفة، وعباد للحقيقة، ومنطلقون من مبدئية القيمة»[2]، ثم يستطرد قائلاً: «أولئك من البروليتاريا الصناعية، وهؤلاء (نحن) مزارعون قرويون (وما دون بروليتاريا). هناك شُكلت طبقة العمال وشملت كل أعضاء المجتمع، وأتسعت وتعمقت وغلُظت وتكثفت وأكتسبت ثقافتها ولغاتها وسماتها ورموزها

١) هذا النص كان قبل ثورة المعلومات وسيادة العولمة.

٢) العودة إلى الذات وعلى شريعتى ترجمة د. إبراهيم الدسوقى شتا. الزهراء للإعلام العربى، ط أولى صـ٧٦، ١٩٨٦.

وعاداتها، وهنا مجرد جماعات متفرقة وفى أركـــان مختلفـــة مـــن العمـــال الصناعيين وأفرادها فى الغالب من الجيل الأول من العمال، وكانوا من قبـــل فلاحين أو عمالاً زراعيين هاجروا إلى المدينة»[1]. ويتابع بالقول «هناك بلغوا مرحلة الصناعة الثقيلة، وهنا لايزال معنى الصناعة عندهم معنى اســـتهلاكياً وأغلبه (رمزى)، وهم يبررونه ويتجهون فيه وجهـــة غريبـــة واســـتيرادية، وأحياناً توجد بعض مصانع للتجميـــع أو الإنتـــاج الجزئـــى الحقيـــر للســـلع الاستهلاكية قليلة القيمة. هناك انتقلوا من البرجوازية إلى الرأسمالية ثم مـــن الرأسمالية إلى آخر مراحلها أى الإمبريالية والاستعمار. وتطوروا من مرحلة تصدير السلعة إلى مرحلة تصدير المصنع، بل وأحياناً تصدير رأس المال... أما هنا فالبرجوازية الجديدة لاتزال فى مرحلة (السمسرة) يقوم بها عدد مـــن وكلاء البيع المتعاقدين مع الشركات الغربية»[2].

ليس المجال هنا مجال الإستطراد لكن لزم التنويه. نعود الآن لبيان تأثير العمل على القيم موضحين ذلك بأمثلة مما حدث فى العالم الصناعى العامـــل بحق فنقول:

كلما أتسعت دائرة العمل، وتصاعدت معه الحاجات الإنسانية، وأزدادت الرفاهية، زاد الطلب على مزيد من العمل، نظراً لاتساع الأفاق التـــى تتفـــتح أمام الإنسانية مع كل مرحلة. لايعنى إزدياد الطلب على مزيد من العمل، إننا نتكلم على إرتفاع أو إنخفاض معدلات البطالة، فـــذلك أمـــر خـــارج نطـــاق اهتمامنا هنا، إنما نتحدث عن الأفاق الجديدة التى يرتادها العمل، ســـعياً مـــن الإنسان نحو مزيد من إضافة القيمة لمزيد من الرفاهية، وســـهوله وتيســـير الحياة. يتبع ذلك بالتأكيد أن منظومة القيم السائدة فى مجتمع ما، فى مرحلة ما من مراحل العمل، وشكل أدواته وآلياته وتنظيماته وإدارته وشكل القوه العاملة السائد يصيبها التغيير مع تغيير عناصر العمل هذه.

---

١) المرجع السابق، صـــ٧٦.
٢) المرجع السابق، صـــ٧٦.

ونظراً لإرتباط التكنولوجيا بالعمل، وبإعتبار أنها من أهم إن لم تكن أهم العناصر المؤثرة والمتأثرة بالعمل، فسوف نوضح مقصدنا فى هذا الفصل من خلال تأثير التكنولوجيا على العمل، وعلى القيم السائدة فى المجتمع العامل، نتيجة التغيير فى التكنولوجيا والتطور فيها.

التطور المتلاحق فى التكنولوجيا، والذى نرى مظاهرة فى أن "الناس اليوم يسافرون أسرع من أى وقت مضى، ويسكنون فى منازل شيدت من مواد لم تكن متاحة من ربع قرن مضى، ويستعملون أدوات وأجهزة منزلية تجعل استمتاعهم بالحياة أكثر، وأيضاً -ويرجع الفضل فى ذلك إلى التكنولوجيا الطبية - أصبحوا يعيشون لفترات أطول من أى وقت مضى. مع ذلك فالتكنولوجيا تقتضى ثمناً يتوجب دفعه، يحيا الناس هذه الأيام وفقاً لمعدلات غاية فى السرعة معرضين لما أطلق عليه (الفين توفلر) تسمية «صدمة المستقبل» بما يعنى: عبء تحمل تغيرات هائلة الحجم فى «وقت قصير للغاية»[1].

سننظر الآن إلى المراحل التى مرت بها التكنولوجيا فى العالم المتقدم وكيف أثرت على منظومة الأخلاقيات السائدة، والأهداف الحاكمة للمجتمع مع كل مرحله. هذه المراحل باختصار هى[2]:

أ- مرحلة التصنيع اليدوى HANDICRAFT ERA.

فى هذه المرحلة، تصنع الناس الأشياء يدوياً. المساكن والملابس والأدوات... كل ذلك ينتج يدوياً.

ب- مرحلة الميكنة MECHANIZATION ERA.

وفيها حلت (الماكينة - العامل) محل (الإنسان - العامل).

---

١) modern human relations at work مرجع سابق، صـ١٧٤، بتصرف.

٢) المرجع السابق، صـ١٧٤.

جـ- المرحلة الميكانيكية MECHANISTIC ERA .

هى المرحلة التى جلبت خطوط التجميع، مثل التى بدأ بها «فورد» فى مصانعه للسيارات. هنا زاد إيقاع التكنولوجيا، وزاد خفوت دور العامل الإنسان.

د- المرحلة الآلية (الاوتوماتية): AUTOMATED ERA.

هى التى شهدت تحديث خطوط التجميع. وأصبح العديد من الوظائف يتم أوتوماتيكياً بدون تدخل إنسانى. وأدعى بعض الناس أن هذا التطور يمثل بداية الثورة الصناعية الثانية. ربط المكاتب المختلفة بأجهزة الحاسب الآلى، وإتاحة الفرصة للمديرين بالدخول من حاسباتهم الشخصية على حاسب الهيكل الرئيسى (MAINFRAME COMP)، وإستخدام مايسمى «بالإنسان الآلى» (ROBOT) هى أمثلة جيدة على هذه المرحلة.

هـ- مرحلة تكنولوجيا السيبرنطيقا (علم الاتصال والتحكم العقلى - المكنى) CYBERNATED ERA.

هنا ماكينات تتولى إدارة ماكينات أخرى وتتحكم فيها مثلما تراقب درجة الحرارة داخل مصنع ما بواسطة الحاسب الآلى، الذى يقوم بإدارة أجهزة التكييف أو أجهزة التسخين لضبط درجات الحرارة وفقاً للمطلوب. كذلك تبرمج الحاسبات لإدارة ماكينات التشغيل. حل «الإنسان» الآلى (ROBOT) محل «الإنسان» الذى صنعه.

بعد هذه العجالة يمكننا الآن قراءة الجدول الآتى[1].

---

١) المرجع السابق، صـ١٧٨.

المرحلة	الأخلاقيات السائدة	الحاجات الإنسانية	الأهداف الحاكمة
التصنيع اليدوى	- الفردية - الحرفية اليدوية	- فسيولوجية - أمنية - انتساب وإنتماء	- البقاء - الذاتية الشخصية - الاستقلالية
الميكنة وخطوط التجميع	- الفردية - المنافسة - الإنتاج الكمى - سيادة التنظيم الهيكلى	- فسيولوجية - أمنية - انتساب وإنتماء	- البقاء - الكفاءة التنظيمية - الربح
مابعد الصناعية	- التعاون مع المؤسسة - الديمقراطية الصناعية - التطابق أو الملاءمة بين الفرد والمؤسسة	- فسيولوجية - أمنية - انتساب وإنتماء - احترام - تحقيق الذات	- القابلية للتكليف - تعظيم الأهداف البشرية والتنظيمية - الاعتمادية المؤسسية المتبادلة

نقطة نظام:

كيف حققت البشرية هذه النقلة الهائلة فى التكنولوجيا؟

أ- استثمارات هائلة داخل قطاع البحوث والتطوير

Research & Development (R&D).

ب- المعرفة: التى تمثل الوقود للتكنولوجى.

التحولات التى واكبت التغيير من المجتمع الصناعى إلى مجتمع مابعد التصنيع[1]:

أ- تحول الطلب نحو قوة عاملة ذات إدراكات خدمية: Service Oriented Work Force

التوجه نحو خدمات النقل، والتجارة، والمال، والتأمين، والعقار يشكّل ثلثى القوة العاملة فى الولايات المتحدة الأمريكية. الثلث الباقى يعمل فى الزراعة والغابات، وصيد الأسماك وصناعاتها، والمناجم، والبناء، والإنتاج الصناعى.

١) المرجع السابق، صـ١٧٩.

ب- تحرك الطلب نحو المحترفين، والعمالة عالية الفنية:

زاد عدد ذوى الياقات البيضاء (White collars) وهو «تعبير يطلق على المديرين التنفيذيين ومن على شاكلتهم. الذين يعملون فى المجالات الخدمية من خلال المكاتب، وأجهزة الحاسب الآلى، ووسائل التقنية الحديثة، والسفر بالطائرات...».

وقل الطلب على ذوى الياقات الزرقاء (Blue Collars) وهو «تعبير يطلق على العمال اليدويين الصناعيين والزراعيين...» الآن فى الولايات المتحدة الأمريكية (على وجه التقريب):

٧٠% من العمالة من ذوى الياقات البيضاء.

٣٠% من العمالة من ذوى الياقات الزرقاء.

جـ- ارتفاع أهمية المعرفة النظرية (Theoretical Knowledge)

تجميع كل المعلومات، وأية معلومات هى الوظيفة الأولى الآن للطبيب، والمهندس، والطبيب النفسى، وعالم الإجتماع... حيث إنها سوف تستخدم كقاعدة بيانات تخدم التخطيط، وتخدم الأبحاث وتخدم المستقبل. مرحلة مابعد الصناعة ذات إدراك مستقبلى يفوق كل ماسبقها من المراحل.

د- التخطيط والتحكم فى النمو التكنولوجى:

الناس ذوو التعليم العالى يعملون فى «وظائف تفكيرية» ويطلق عليها «Think jobs, think tanks». عملهم الرئيسى هو: ماذا سيكون عليه العام القادم؟ والأعوام التالية؟ والعقدان التاليان؟...

هذا التغيير الكبير فى المناخ، أدى إلى تغيير هائل داخل المؤسسات القائمة بالأعمال، مما يعنى أن التكنولوجيا لاتؤثر فقط على الهياكل الإنتاجية والتنظيمية، بل تؤثر على الناس أنفسهم أيضاً.

وهنا يظهر مايطلق عليه الآن «الثقافة المؤسسية للعمل Organizational Culture»[1]، ومع وجود «ثقافة الإنسان الفرد Individual Culture»، أصبح من المحتم على الفرد أن يوائم بين ثقافته الفردية، وبين الثقافة المؤسسية، ثم أن يكون على استعداد للمواءمة من جديد عند تغير الثقافة المؤسسية مثلما هو الحادث نتيجة التحول فى المراحل مثلما سبق بيانه.

ماهى ثقافة الإنسان الفرد؟ هى: المعايير والتوجهات والقيم والإيمان والمعتقدات التى يحملها الفرد معه إلى العمل. ويصبح المطلوب من الإنسان الفرد القدرة والمرونة لتلبية المطالب التى يمليها عليه التغيير فى العمل، بمعنى أن يكون مهيأ للتوافق والانسجام الثقافى «Cultural Match»[2]، أى يعنى المماثلة والتكيف بين ثقافة الإنسان الفرد، وثقافة مؤسسة العمل التى يعمل داخلها هذا الإنسان.

وغنى عن الذكر أن ذلك عادة مايصاحبه تغييرات سلوكية ومخاوف وعواطف تتغير وتتبدل، وقيم تبرز وتتصاعد وتخفت وتهبط مع كل تغيير يحدث فى المناخ المحيط بالعمل. ومن أمثلة بعض ذلك من التأثيرات المتضمنة للتكنولوجيا على الناس فى المجتمعات المتقدمة ظهور مااصطلح على تسميته.

أ- الإغتراب Alienation[3].

يتضمن هذا المفهوم الناتج عن تطور التكنولوجيا الفائق السرعة:

١- فقدان القوة / العجز Powerlessness.

وهو مايشعر به العاملون من أنهم أصبحوا تحت رحمة التكنولوجيا،

---

١) وما بينهما المرجع السابق، صـ١٧٩.

٢) المرجع نفسه.

٣) المرجع نفسه.

إضافة إلى الإحساس بالفشل فى مواكبة السرعة المطلوبة التى تفرضها معدلات التسارع فى التكنولوجيا.

٢- فقدان المعنى Meaninglessness:

وهو الشعور الناتج عن أداء عمل لايحمل قيمة شخصية. التقسيم الوظيفى والفنى الهائل أدى إلى أن العامل لايعرف مايفعله، ولا لماذا يفعله؟ خصوصاً على خطوط التجميع الضخمة (من يقوم بتجميع جزئين صغيرين مع بعضهما ليكونا مجموعة فرعية «Down Subassembly» سوف يتم تجميعها لاحقاً مع أجزاء أخرى متعددة لتكوين مجموعة فرعية أكبر «Subassembly» لايعرف أين ذهبت مجموعته، ولا ما دورها فى المنتج النهائى البالغ التعقيد.

٣- العزلة Isolation:

سواء داخل العمل، ثم داخل المكتب، وحيداً أمام خط التجميع، أو جهاز الحاسب الآلى، أو داخل المدن الكبيرة التى تقزّم الفرد وتعزله ثم تسحقه.

٤- الإقصاء الذاتى Self-Estrangement:

وهى عملية يقوم بها الفرد، أو تحدث له نتيجة لفقدان الإشباع الحقيقى الناجم عن المشاركة الجماعية.

ب- الخوف من استبدال الماكينة بالإنسان[1]

وهو الحالة النموذجية للعاملين الذين يفتقدون المهارة العالية اللازمة، أو أصحاب الوظائف الإدارية أو المتعلقة بالدورة المستندية للعمل « Paper Work» وغالباً مايحدث لهم مايتوجسون منه.

---

١) ومابينهما المرجع السابق، صـ١٨٢- ١٨٣.

الخلاصة:

العمل هو المحرك والقوة الدافعة والرافعة لتغيير وتحريك القيم، والأخلاقيات السائدة، والأهداف الحاكمة، والأنماط الثقافية الراسخة وحتى العواطف والمخاوف والأحاسيس الإنسانية، ويفرض على الأفراد الحركة - التى هى سنة من سنن الخالق فى كونه - تجاه المواءمة والملاءمة والإنسجام مع التغيرات التى تحدث حولهم، حتى يتسنى لهم أن يحيوا زمانهم، ويعايشوا حيزهم الجغرافى، وينخرطوا فى الهياكل الاجتماعية المحيطة بهم، والرابطة بينهم.

*   *   *

الفصل الخامس
العمل والتصور الاعتقادى
التلازم العضوى

إذا صح لديك الزعم منى أن الإيمان هو فى جوهره قيام معنى الآخر فى وعيك الذاتى، وأن تجلى هذا الإيمان هو فى إتساع دائرة عملك حتى تسع الآخر الذى سطع حقه داخل وعيك، فهل يكمن فى هذا الزعم أحد الإجابات عن السؤال الذى يقول: لماذا ارتبط الإيمان بالعمل فى معظم الآيات القرآنية التى وردت عن المؤمنين فى الكتاب الكريم؟

يقول القرآن الكريم:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾[١]،

ويقول:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾[٢]،

كأنما الإيمان يؤدى إلى العمل.

ويقول القرآن:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ ﴾[٣]،

---

١) (٩٦) مريم.

٢) (٧) العنكبوت.

٣) (١٢٤) النساء.

ويقول:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾[1]،

كأنما العمل يؤدى إلى الإيمان.

تعالوا نبحث عن إجابة أخرى لهذا السؤال. يقول الشيخ شلتوت تحت عنوان «الإسلام عقيدة وشريعة»[2]:

أ- العقيدة: هى الجانب النظرى الذى يُطلب الإيمان به أولاً وقبل كل شيء.

ب- الشريعة: هى النظم التى شرعها الله، أو شرع أصولها ليأخذ الإنسان بها نفسه فى علاقته بربه وسبيلها أداء الواجبات الدينية كالصلاة والصوم، وعلاقته بأخيه المسلم (**وسبيلها تبادل المحبة والتناصر والأحكام الخاصة بتكوين الأسرة، والميراث**)، وعلاقته بأخيه الإنسان (**وسبيلها التعاون فى تقدم الحياة العامة، والسلم العام**)، وعلاقته بالكون (**وسبيلها حرية البحث، والنظر فى الكائنات واستخدام أثارها فى رقى الإنسان**)، وعلاقته بالحياة (**وسبيلها التمتع بلذائذ الحياة الحلال دون إسراف أو تقشف**).

العقيدة إذن جانب نظرى يحتاج إلى تصور يعتقده القلب ويتعهده، والشريعة هى العمل وفقاً لهذا التصور الاعتقادى. لهذا فإن الإيمان هو «ماوقر فى القلب، وصدّقه العمل»، أى اعتقاد وعمل يصدّق هذا الاعتقاد، أو هو خطة وأسلوب لتنفيذ هذه الخطة. هو تصور وعمل ينقل هذا التصور إلى داخل الطبيعة المحيطة بصاحب هذا التصور لإعادة تشكيلها وتحويرها وبنائها

---

١) (١١٢) طه.

٢) الإسلام عقيدة وشريعة محمود شلتوت دار الشروق، صـ١٨، صـ٩.

طبقاً لهذا التصور. مع المؤمن نسمى هذا التصور «بالتصور الإعتقادى» الذى يستلزم «العبادة»، والعمل التنموى الإعمارى كما أسلفنا.

وفى ذلك يقول القائل: «الإسلام منهج حياة بشرية واقعية بكل مقوماتها»[1]، أى أنه منهج لاتقتصر مهمته على تنظيم العلاقة بين الإنسان وخالقه فقط، وإنما يمتد لشمل حياة الإنسان كبشر، بكل صبواته وضعفه ومتطلباته ودوافعه وخلجاته داخل الطبيعة وبين أقرانه، ومع الكائنات التى تعيش فى كنفها. «منهج يشمل **(التصور الإعتقادى)**، الذى يفسر طبيعة **(الوجود)**، ويحدد مكان **(الإنسان)** فى هذا الوجود، كما يحدد **(غاية وجوده الإنسانى)**»[2]، فالله هو خالق كل شىء، وهناك موت وبعث ونشور، لأن الكون خلق لغاية، وأن الناس سوف تحاسب على أعمالهم فإما جنة أو سعير، وأن الإنسان لم يخلق عبثاً أو لهواً أو لعباً، وأنه كادح إلى ربه كدحاً فملاقيه، وأن الإنسان هو خليفة الله فى الأرض، وهو موضع تكريمه، وبذلك فهو كائن مكلف...

وعلى الإنسان بالتالى أن يقيم فى عالم الطبيعة كل التنظيمات والمؤسسات التنفيذية والتشريعية والقضائية والاجتماعية والسياسية التى تكفل له الوصول إلى الحياة فى سلام ووئام مع تصوره الإعتقادى دونما تضارب وتعارض وأنفصام، لذلك يستطرد «سيد قطب» قائلاً: «ويشمل **(هذا المنهج)** النظم والتنظيمات الواقعية التى تنبثق من هذا التصور الإعتقادى وتستند إليه وتجعل له صورة واقعية متمثله فى حياة البشر كالنظام الأخلاقى والينبوع الذى ينبثق منه، والأسس التى يقوم عليها، والسلطة التى يستخدمها والنظام

---

١) المستقبل لهذا الدين سيد قطب، طـ٦، الاتحاد الإسلامى العالمى للمنظمات الطلابية، صـ٣، ١٩٨٦.

٢) نفس المرجع.

السياسى وشكله وخصائصه، والنظام الاجتماعى وأسسه ومقوماته، والنظام الاقتصادى وفلسفته وتشكيلاته، والنظام الدولى وعلاقاته وارتباطاته»[1].

المطلوب إذن هو العمل من أجل إنزال التصور الإعتقادى للمؤمن على العالم المحيط به من طبيعة وكون، والتفاعل من خلاله مع الآخر المشارك له فى التصور، والآخر النظير له فى الخلق بما يكفل الحرية والعدل والمساواة والسعادة والرفاه، وبما يضمن إدخال قضاء الله كما يحب ويرضى فى مسيرة التاريخ الإنسانى، وبما يؤكد على إضافة القيمة فى المسيرة الإنسانية نحو الخلود.

تصور الإنسان عن الكون أو العالم المحيط به أصبح الآن من المقولات الأساسية لدى علماء الأنسنة «الانثروبولوجى» عند دراسة الثقافات الإنسانية فقد: «ذكر الانثروبولوجى المعروف «مايكل كيرنى (Michael Kearny)» أنه لم يعد من الممكن دراسة التصورات حول الثقافات فى تكويناتها والعلاقات فيما بينها، إلا بالاستناد فى ذلك إلى بحوث وفرضيات **(رؤية العالم)** أو رؤاه. وكان هذا المصطلح **(رؤية العالم)** (Chauungweltans) قد ظهر للمرة الأولى فى كتابات الفيلسوف والمؤرخ الألمانى [ويلهلم دلتاى (Wilhelm Deltay) (١٨٣٣ - ١٩١١)]، ثم شاع فى أوساط الأنثروبولوجيين والمؤرخين منذ القرن التاسع عشر، بحيث صار اليوم أحد المقولات الكلية التى تدخل فى مضمون الثقافة. وقد صنف السوسيولوجى الألمانى الكبير [ماكس فيبر (Max Weber) (١٨٦٤- ١٩٢٠)] تلك المقوله (رؤية العالم) فى مستويين درس إستناداً إليهما ثقافات تاريخية عده:

- **المستوى الأول:** يطلق عليه «دلتاى» إسم **(الصورة الكونية)** التى تؤلف الكتلة الأساسية للمعتقدات والمسلمات الإفتراضية عن العالم الواقعى،

---

١) نفس المرجع.

والتى يمكن فى ضوئها الوصول إلى إجابات شافية عن التساؤلات عن مغزى الكون والوجود أو ما يعرف (**بروح الحضارة**).

- **المستوى الثانى**: يتعلق بالسياق (**التصورى الواعى والإرادوى**)، الذى تضع فيه (**الذات الجمعية**) نفسها ضمن تقسيمات العالم الواقعية من النواحى الثقافية فى الأصل، ولكن أيضاً من النواحى الأخلاقية والاجتماعية والسياسية»[1].

وقد يكون المستوى الثانى المشار إليه سابقاً هو الذى عنى القرآن بتوضيحه فى سياق التصور الواعى للإنسان حين خاطبه قائلاً:

﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ ﴾[2]،

الأصل فى الإختلافات الإنسانية هو من أجل التعارف والإقتراب، ومعيار التفاضل هو التقوى للقضاء على دعاوى التفوق العرقى أو الجينى، أو حيازة الأفضلية لدى الخالق، أو العنصرية، أو الشوفينية (**عبادة التراب الوطنى**)...

والتصور الإعتقادى من الأهمية بمكان بما دفع بعضهم إلى القول: «إن لكل حضارة من الحضارات تصور كونى للعالم، أى نظرة يفهم وفقاً لها كل شىء ويقيّم. والتصور السائد فى حضارة ما هو الذى يحدد معالمها، ويشكل اللحمة بين عناصر معارفها، ويملى منهجيتها، ويوجه تربيتها. وهذا التصور يشكل إطار الإستزادة من المعرفة والمقياس الذى تقاس به. وتصورنا للعالم هو من الأهمية بحيث لاندرك أن لدينا تصوراً ما إلا حين نواجه تصوراً

---

١) رؤية العالم فى الفكر الإسلامى – رضوان السيد، جريدة الحياة ٢٠٠١/٥/١٨.
٢) (١٣) الحجرات.

بديلاً، إما بسفرنا إلى حضارة أخرى، وإما بإطلاعنا على أخبـار العصـور الغابرة، وإما حين يكون تصور حضارتنا للعالم فى طور التحول»[1].

ويذهب الأستاذ/ السيد ياسين فى مقال قيّم له فى جريدة الأهرام بعنوان **(أزمة الهوية)** إلى الحد الذى يقول فيه: «إن الحديث عن الهوية فى المجتمع يحتاج إلى بلورة مفاهيم محددة قادرة على إستكناه جوهر مشكلة الهوية. وفى تقديرنـا أن المفهـوم الأقـدر على ذلـك هـو مفهـوم (رؤيـة العالـم) (Vision du monde).... وأهـم الخصائص النظرية للمفهـوم كمـا حـددها (كينيث بولدون) فى كتابه المهم (الصورة The Image) يمكن إجمالها فـى النقط التالية:

١- **الصورة المكانية:** هى الصورة لدى الفرد عن وضعه أو موضعـه فى المكان المحيط به.

٢- **الصورة الزمانية:** وهى الصورة التى يكونها الفرد عـن مجـرى الزمن ومكانه فيه.

٣- **الصورة العقلانية:** وهى الصورة التى لدى الفرد عن الكـون مـن حيث هو نسق من الإنتظامات والعلاقات.

٤- **الصورة الشخصية:** وتتعلق بمكان الفـرد فـى عـالم الأفـراد أو الأشخاص والأدوار والنظم التى تحيط به.

٥- **صورة القيمة:** وتتألف من الأحكام المتعلقة بما هـو خيـر وشـر وبالنسبة للعناصر والأجزاء المختلفة من رؤية العالم ككل.

٦- **الصورة الوجدانية:** وهى الصورة التـى تصـبغ فيهـا الأجـزاء المتنوعة من رؤية العالم بصبغة عاطفية إنفعالية. وهذه الصورة تنطـق بمـا

---

١) العلم فى منظوره الجديد روبرت م. أجروس/ جورج ز ن ستانسير عالم المعرفـة، ١١٤، صـ١٥.

نحب ولا نحب من أجزاء الكون، وتتعلق أيضاً بمشاعر الخوف والرهبة والألم والسعادة نحو ذلك.

٧- **الصورة**: من حيث هى مقسمة إلى جوانب شعورية ولا شعورية ودون شعورية، ومعنى ذلك أن الأفراد ليسوا على وعى كامل بكل جوانب رؤى العالم التى لديهم، حيث توجد درجات متفاوتة من الشعور بتلك الجوانب.

٨- **الصورة**: منظوراً إليها من خلال بُعد (التأكد أو اليقين)، و(عدم التأكد)، والوضوح والغموض. فهناك بعض الجوانب خاصة الوجدانية الإنفعالية من رؤى العالم والتى قد تكون غير مؤكدة أو اضحة فى ذهن الأفراد، بينما تمتاز بعض الجوانب الأخرى بالوضوح والتأكد.

٩- **الصورة**: منظوراً إليها من خلال بُعد (الواقعية) أو (عدم الواقعية) ويعنى ذلك مدى إتفاق (رؤية العالم) أو (الصورة الذهنية) مع بعض جوانب العالم الخارجى كما هى عليه فى الواقع.

١٠- **الصورة**: منظوراً إليها من خلال بُعد (الخصوصية) أو (العمومية) بمعنى معرفة إذا ما كانت (رؤية العالم) رؤية (فردية ذاتيه) أو (شخصية)، أو (جمعية) يشترك فيها جميع الأفراد.

ويذهب (بولدون) إلى أن الرابطة الأساسية لأى مجتمع أو ثقافه فرعية أو نظام هى (الصورة العامة Bublic Image) التى تشير إلى الخصائص الجوهرية (لرؤية العالم) أو الصورة العامة التى يشترك فيها أفراد ذلك المجتمع»[1] إنتهى.

التصور الاعتقادى الأولى للإنسان فى بداياته يطلق عليه القرآن الكريم كلمة (الظن)، وهو ليس الظن الذى وصف القرآن بعضه بالإثم، والذى نعته الرسول ﷺ بأنه (أكذب الحديث) وحذر منه، ولكنه بمعنى (الظن) الذى قد

---

١) مقاله بعنوان (أزمة الهوية) السيد ياسين جريدة الأهرام.

يوضع موضع (العلم) مثل أن تقول: (ظننتك) زيداً، أو (ظننت) زيداً إياك، وبمعنى (مظنة) الشيء أي موضعه والمكان الذى يُألف فيه، وفى ذلك يقول القرآن الكريم فى وصف الخاشعين:

﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾[1].

ويقول فى وصف أهل الثبات فى النزال والقتال من المؤمنين

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾[2].

لذلك عندما رأى سيدنا إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام، قومه منكبين على عبادة أصنام وتماثيل بادرهم متسائلاً:

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[3]

إنه يتساءل هنا عن شكل التصور الإعتقادى لقومه فيما يتعلق برب العالمين والذى دفعهم لسلوكهم هذا فى عبادته عن طريق الأصنام والتماثيل والآلهة.

وهنا نفهم معنى الحديث: «أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه إذا دعانى»[4] الله عندك وفقاً لتصورك الإعتقادى عنه، فعليك بالإرتقاء بهذا التصور ما أستطعت.

---

١) (٤٥)، (٤٦) البقرة.

٢) (٢٤٩) البقرة.

٣) (٨٥– ٨٧) الصافات.

٤) عن أبي هريرة، أخرجه الترمذى، وقال حسن صحيح.

وقد أسلفنا[1] أن الحرية بكافة تصنيفاتها من حرية الإعتقـاد، والتفكيـر والإختلاف، والسؤال والمحاولة، وإبداء الرأى، والعمـل، والأمـن، وتلقـى الخدمات من الحكومة، وحرمة المسكن، وعدم الإعتـداء والإيـذاء البـدنى، وسرية المراسلات، وحق التنقل والإنتقال... كل هذه الحريات هى الضرورة الأولى والحتمية والواجبة، وهى البنية التحتية والدعامة التى يقوم عليها وبها يبدأ التصور الاعتقادى فى التكوين والنمو والإرتقاء من الظن، وصولاً إلـى اليقين. بدون الحرية لا أساس يمكن أن يقوم عليه تصور إعتقـادى حقيقـى بالمرة، ناهيك عن أن يكون تصوراً اعتقادياً سليماً بأية صورة من الصور.

ثم يأتى العمل بعد الحرية، أو بمعنى أقرب للدقة، مصاحباً لها كضرورة أخرى لازمة لإظهار هذا التصور الإعتقادى، وإضفاء الحياة عليه فـى دنيـا الواقع، وداخل الطبيعة المحيطة، وفى إطار الحياة المعاشة، ثم عـن طريـق التغذية العكسية، أو عملية الاسترجاع (Feed Back) لتأثيرات العمل علـى الطبيعة والواقع والحياة، ومن النتائج الحادثة داخل مناحى وتنظيمات ووقـائع البيئة الواقعية تتم عملية المراجعة والتصحيح للتصور الاعتقـادى. الحريـة ضرورة بناء التصور الإعتقادى، والعمل ضرورة إنزال التصور الإعتقـادى على الواقع، ثم تصحيحه (هذا التصور) عن طريق نتائجه العملية وضروراته الواقعية. وهذه هى جدلية التطور الإنســانى، وإضـافة القيمـة مـن الفـرد والمجموع الإنسانى، وإدخال قضاء الله كما أمر وكما يحب ويرضى داخـل المسيرة الإنسانية التاريخية على الأرض، والتصاعد فى المعرفة الربانية من الحمأ المسنون إلى الإنسان الربانى فى رحلة الخلود الذى لايعتريه هلاك ولا فناء. هذا هو معنى أن (الإيمان ما وقر فى الصدر، وصدقه العمـل) نيـة أو اعتقاداً أو تصوراً، وعملاً نابعاً من هذه الحرية الجوانية (النيه - التصور - الإعتقاد)، والبناء الفكرى الداخلى، عملاً يصدّق ويبرهن ويؤدى إلى تطبيـق هذا البناء الفكرى داخل الطبيعة التى سخرها الله لهذا الإنسان. وهنا نسـتطيع

---

١) أنظر كتابنا الحرية فى الإسلام - الضرورة المحظورة نشأت جعفر.

أن ندرك قول الرسول ﷺ : «وقوم قالوا: نحسن الظن بالله ولم يحسنوا العمل، فقد كذبوا لو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا العمل» لن يأتى العمل السليم إلا من تصور إعتقادى سليم. ولهذا فقد نعت الرسول عليه الصلاة والسلام من أقتصر على تصور إعتقادى بدون أن يتقدم به إلى مرحلة العمل بقوله: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[1]. التوقف عند حدود التصور الإعتقادى، بدون عمل وفقاً له على أرض الواقع هو فى التقدير النبوى «أضعف الإيمان». من هنا أسلفنا القول عن العمل بأنه: «هو الفعل الخارجى فى الطبيعة أو البيئة المحيطة وبين الناس، أى الفعل فى الخارج. العمل يعنى خروج الحرية الجوانية إلى أرض الواقع. ذلك يعنى أن الإنسان أجرى الاختيار بين البدائل بالحرية المكفولة له، ثم أتخذ القرار بداخله، والعمل هو إخراج القرار، ووضعة فى حيز التنفيذ فى الواقع الخارجى، وهو محاولة تشكيل مادة هذا الواقع – إذا كان الواقع مازال غفلاً – أو إعادة تشكيلة أو ترتيبه طبقاً للقصور الإعتقادى للإنسان»[2]. وقلنا «أن الوازع الأخلاقى منفرداً لايحقق الإيمان فلابد معه من العمل الذى يرفع من تأثير كل الحتميات عن الذات الإنسانية، سواء أكانت تأثيرات طبيعية أو مجتمعية أو تاريخية أو هوى شخصى...»[3]. العمل يصحح التصور الإعتقادى، ويدفع إلى مزيد من الحرية التى تبنى هذا التصور فى جدلية متناغمة متصاعدة تطورية.

لذلك يصبح من الطبيعى ومن المنطقى ومن المفهوم أن يأتى العمل فى معظم الآيات القرآنية مقترناً بالإيمان، وفى ذلك إجابة عن التساؤل الذى طرحناه فى مقدمة هذا الفصل. الإيمان أو التصور الإعتقادى هما الاستراتيجية والعمل هو التكتيك، أو هما الخطة والعمل هو الأسلوب التنفيذى

---

١) صحيح مسلم، فى الإيمان (٤٩). والترمذى فى الفتن ٢١٧٣.
٢) الحرية فى الإسلام، مرجع سابق، صـ١٨٩.
٣) المرجع السابق، صـ١٩١.

لهذه الخطة ومن نافلة القول أنه لامعنى لأعظم الاستراتيجيات أو أكبر الخطط وأشملها بدون التنفيذ العملى على أرض الواقع، لكونها لن تزيد عن أن تصبح مجرد ذهنيات مجرده، وأقوال منثورة على أوراق، ومتون وهوامش على المتون، ومباريات عقلية، ومعارك دون كيخوتيه، وتمنيات وأمانى وغرور فى أفضل الأحوال، بدون أن تنفع الناس، لذلك فمصيرها هو أن تذهب جفاءً*(1) لأنه لايمكث فى الأرض إلا ماينفع الناس.

ويمكننا الآن الزعم بدون تجاوز أنه لايوجد عمل بدون تصور إعتقادى يكمن خلفه. العمل لايحدث ولا ينبثق من خواء، لأن الفكرة دائماً ماتسبق العمل. تتمركز المشكلة فقط فى أن على الفرد أن يجاهد ليصبح عمله متواءماً مع تصوره الاعتقادى، أو أن يعمل وفقاً لهذا التصور.

بالتالى فإن الإفساد فى الأرض، والإعتداء على الآخر، وإهلاك الحرث والنسل، والعدوان والبغى والنهب والسلب، هى أعمال لايمكن لها تحت أية دعوى من الدعاوى أن تكون صادرة من تصور إعتقادى سليم أو صادرة عن إيمان حقيقى بالمعنى الإسلامى، وهنا يمكننا إدراك الأبعاد الكامنة خلف حديث الرسول ﷺ حين قال: «لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن»(2). الزنا وشرب الخمر والسرقة والنهب أعمال حين تؤدى يكون التصور الإعتقادى الكامن ورائها بعيداً عن السلامة والحق والإيمان بعد المشرق عن المغرب. وقوله «نهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم»(3) معناه أنها نهبة ذات قدر عظيم،

---

1) جُفاءً: مرمياً به مطروحاً أو متفرقاً، كلمات القرآن تفسير وبيان الشيخ حسنين مخلوف دار المعارف. أو يجف ويذهب ولا يستكن فى الأرض زبدة التفسير د. سليمان الأشقر، صـ599.

2) رواه البخارى واللفظ له. ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

3) زاد المسلم، صـ837.

وقيل «ذات استشراف ليستشرف الناس لها ناظرين إليها رافعين أبصارهم»[1].

الآن ولزيادة الإيضاح - وأستميح القارئ عذراً فى شبهة التكرار - بخصوص جدلية التفاعل والإسترجاع بين التصور الإعتقادى والعمل فى أرضية الواقع الحياتى، سوف نلجأ مرة أخرى إلى العالم الأول لنرى كيف أن تصوراً إعتقادياً من مثل (الرأسمالية) وذلك على سبيل المثال، قد تغير وتحور وتبدل وتطور نتيجة (العمل) به فى أرض الواقع الكونى، فتبدل التصور عن (الرأسمالية)، ثم تغير (العمل) وفقاً لتبدل التصور وهكذا فى جدلية حلزونية لاتبدو لها نهاية طالما هناك بشر يفكرون ويعملون ويكدون ويكدحون وفقاً لتصورهم الإعتقادى فنقول:

(*): (الرأسمالية) بخلاف التشكيلات التاريخية السابقة لها، لاتراوح فى مكانها، بل هى مندفعة دوماً للأمام. وقد تطورت الرأسمالية على الدوام ومن بدايتها عن طريق المراحل. وقد كان أحد المحركات الرئيسية لهذا التطور: (الابتكار التقنى) - وهو لصيق الصلة بالعمل بل وأحد نتائجه الذى أستتبع بإستمرار أيضاً تجدد أنظمة الإنتاج.

بالإجمال يمكن القول أن الرأسمالية مرت بمراحل كبرى ثلاث:

١- **الرأسمالية الكلاسيكية**: التى تولدت من الثورة الصناعية الأولى التى كانت انجلترا مسرحها فى الحقبة الممتدة بين (١٧٦٠ - ١٨٧٥م) والتى شهدت مولد النول الميكانيكى، والمحرك البخارى، وتطور صناعة الحديد والصلب.

٢- **رأسمالية الثورة الصناعية الثانية (١٨٩٠ - ١٩٦٥م)**: اقترنت بالإستخدام الواسع النطاق للطاقة الكهربائية، وباكتشاف المحرك الأنفجارى

---

١) المرجع نفسه.

(مثل محركات السـيارات) (Internal Combustion Engine)، وتطـور الصناعة الكيماوية.

٣- **رأسمالية الثورة الصناعية الثالثة:** التى دشنها ابتداء مـن مطلـع السبعينيات من القرن العشـرين تطـور التكنولوجيـات الجديـدة للإعـلام والإتصال. وهذه المرحلة لاتزال بعيدة عن الإكتمـال، فهنـاك مـن جهـة التطبيقات المدهشة للمبتكرات الإلكترونيـة فـى مجـال الهـاتف والتلفـزة والحاسوب وهناك من جهة ثانية الإكتشافات المذهلة أيضاً فى مجـال علـوم الحياة والجينات الوراثية. ويبدو أن هذه الثورة الصناعية الثالثة دخلـت هـى نفسها فى طور جديد فى مطلع القرن الحادى والعشرين هذا بفضـل القفـزة النوعية فى مجال علوم المعرفة، بدءاً بالإنترنت وإنتهاءً ببنوك المعطيـات أو المعلومات.

هذه التجديدات التكنولوجية كان لابد أن تؤثر علـى بنيـة الرأسـمالية فالأقتصاد لن يقوم بعد الآن على (القوة المادية) بل على (القـوة الذهنيـة) أو بتعبير أدق على (قوة المعرفة). وهذا التحول سينعكس تبدلاً جذرياً فى:

- **طبيعة القوة العاملة:**

- **البنية الاجتماعية للإقتصاد الرأسمالى:** الذى سيتحول أكثر فأكثر من اقتصاد صناعة إلى اقتصاد خدمات صارت الخدمات تستوعب فى بلد مثـل فرنسا ٧٠% من قوة العمل مقابل ٢٥% للصناعة، ٤,٥% للزراعـة. فـى الولايات المتحدة حصة الخدمات تمثل ٨٠% من قوة العمل مقابـل ١٧,٥% للصناعة، ٢,٥% فقط للزراعة.

يتواكب هذا التحول فى البنية الإجتماعية للرأسمالية الجديدة مع تحـول فى طبيعة الاقتصاد نفسه فهو سينزع أكثر فأكثر إلى أن يكون (**اقتصـاداً لا مادياً**). فثالوث الرأسمالية الصناعية: الإنسان / الآلة / المادة/ سيخلى مكانـة لثالوث جديد: **الإنسان / الفكرة / الصورة**. طبيعـة المنتجـات الإسـتهلاكية ستتغير، **فلن تكون ذات طابع ثابت وذات قيمة نهائية برسم الإستهلاك حتـى**

الإهتلاك، شأن الغسالة الكهربائية التى تصمم لـ **(تعيش)** نحواً من عشر سنوات قبل أن تتحول إلى **(نفاية)** بل ستكون من الآن فصاعداً ذات طابع متحول ومتطور ومفتوح على شبكة لا متناهية من الخدمات أما المنتوج المادى بحد ذاته من جهاز انترنت أو تليفزيون أو هاتف محمول فلن يكون سوى **(ركيزة)** لتوزيع الخدمات لاموضوع الإستهلاك بحد ذاته. ولهذا فإنه لايندر أن تباع هذه **(الركائز المادية)** بأرخص من كلفتها الحقيقية، وذلك بقدر ما أن الغرض منها ليس تسويقها بحد ذاته، بل تسويق الخدمات التى تؤديها.

سيطول التغيير أيضاً طرائق الإنتاج، وأساليب العمل، والتنظيم الداخلى فى المشاريع، وتغدو **(المرونة)** لا **(الثبات)** هى الطريقة المثلى فى التنظيم الداخلى للعمل، لأن الخدمات المطلوب إنتاجها ليست سلعاً نهائية وجاهزة، بل هى شبكات من العلاقات لا متناهية الأداء، وقابلة لتلبية أوسع نطاق ممكن من الأذواق الشخصية. فى ظل هذا **(التقسيم المعرفى للعمل)** تتحول الرأسمالية الجديدة من **(رأسمالية يد)** إلى **(رأسمالية دماغ)**، ويتقدم الإبتكار على التنفيذ، ويخلى فيها العامل مكانه للمهندس، وبعد أن كانت **(رأسمالية فورد)** تراهن ليس فقط على **(الإنتاجية التى يمثلها العامل)**، بل كذلك على **(طاقته كمستهلك)**، وأستطاعت بذلك أن تقاوم بنجاح مد الأيديولوجية الشيوعية، فقد دخلت هذه الرأسمالية فى أزمة فى أواخر عقد السبعينيات مع تباطؤ معدلات النمو، وإرتفاع معدلات التضخم، ودخول النظام النقدى الدولى فى منطقة عواصف ما قبل العولمة. واضطرت الحكومات إلى فك الإرتباط مابين الأجور وأرباح الإنتاجية، وإلى شد الأحزمة فى مايخص زيادات الأجور، وإلى إطلاق عمليات الخصخصة، وتعليق دولة الضمانات الإجتماعية، وإيقاف العمل بعقد الشراكة بين أرباب العمل والعمال. وتحولت من **(رأسمالية أرباب عمل وعمال)** إلى **(رأسمالية مدراء شركات ومساهمين)**، وما عاد مطلوب استرضاء العمال - الذين أنخفضت نسبتهم أصلاً كعنصر إنتاجى إنخفاضاً كبيراً مع تطور نظام **(الآلية Automation)** - بل استرضاء المساهمين وتأمين حصتهم المتوقعة من الأرباح. وترتب على هذا التحول البنيوى

للرأسمالية ثلاث نتائج خطيرة، فالتنظيم الإجتماعى فـــى نظـــام الرأســـمالية الفوردية كان يقوم على دعائم ثلاث:

١- مؤسسات مركزية.

٢- علاقات إجتماعية ثابتة.

٣- قيم جماعية قوية.

وقد تهاوت هذه الدعائم الثلاث فى ظل رأسمالية المساهمة:

١- مجتمع شبكات العلاقات التى أرسته ثورة التكنولوجيات الإعلاميـــة الجديدة أدى إلى (**نزع صفة المركزية عن العلاقات الإجتماعية**).

٢- تلك التكنولوجيات إقتضت التحول عن التنظيم القائم على التراتـــب الهرمى إلى تنظيم (**أفقى ولا مركزى**) للمشاريع يقوم على الإرتباط المتبادل.

٣- نظام (**القيم الجماعية**) قد أخلى مكانة (**لنزعة فردية مشتطة**) إذ أن الإرتباط عن طريق الشبكة يجبر الإجراء (**العاملين**) على التصرف (**كأفراد**) بدون مرجعية طبقية وبلا وساطة نقابية.

سوق العمل فى نظام الشبكة تغدو قائمة على (**مايفرق بـــين الإجـــراء العاملين**) لا على (**مايجمع بينهم**). فسوق العمل تتطلب (**مهارة إختصاصـــية وقوة دماغية**) لا عضلية (**وتفاوت كبير فى شروط العمل والأجور**).

ومن ثم ألغى مفهوم (**العقود الجماعية**)، وكذلك مفهوم (**العمل الثابت**)، والإستخدام الدائم، فحل (**التعاقد لأجل محدود**) محـــل التعاقـــد (**لأجـــل غيـــر محدود**)، كما حل مفهوم (**العمل بدوام جزئى**) محل (**العمـــل بـــدوام كامـــل**) وأرتفعت نسبة المتعاقدين لأجل محدود أو بدوام جزئى من ٤% إلـــى ١٦% فى عموم البلدان الأوروبية فى الفترة مابين (١٩٨٦ - ١٩٩٦) وإلى ضعف هذه النسبة فى الولايات المتحدة وبريطانيا.

تزامنت هذه التحولات فى البنية التنظيميـــة للرأســمالية الجديـــدة مـــع تحولات على صعيد البنية الفوقية الإيديولوجية. فقد (**قلبت نظام الأولويات**) إذ قدمت:

- (**الفرد**) على (**الجماعة**).
- (**العقد**) على (**القانون**).
- (**السوق**) على (**التخطيط**).
- ما هو (**إقتصادى**) على ما هو (**سياسى واجتماعى**)»[1].

أرأيتم الجدلية بين التصور الإعتقادى والعمل. من لاينتج فكراً لا ولـــن يستطيع إنتاج سلعة مادية أو خدمية، وبدون تصور إعتقادى فلا عمل، وبدون العمل فلا وجود لتصور إعتقادى حقيقى ونامى ومتطور وصـــحيح... هـــل أكون من رافعى الشعارات إذا هتفت "إن العمل حياة"...

سطوع شمس اليقين على التصور الإعتقادى والحجم الكمى والكيفى للعمـــل الصادر عن مثل هذا التصور

إذا كانت الحرية هى أساس بناء وتكوين التصور الإعتقادى، ثـــم يـــأتى العمل ليصحح من هذا التصور وليزيد فى صوابه فى جدلية تـــؤدى إلـــى أن تسطع شمس اليقين على التصور الإعتقادى ليتحول الظن إلى علم اليقين ثـــم إلى حق اليقين وصولاً إلى عين اليقين. ويتبادر إلى الذهن على الفور تساؤل كيف يكون حجم العمل من الناحية الكمية وعلى المستوى الكيفى والنوعى إذا كان صادراً عن تصور اعتقادى بهذه السلامة والصواب واليقين. ثم أين هـــو صاحب مثل هذا التصور الإعتقادى؟ وما الدليل عليه؟

---

١) مابين العلامتين (*) تلخـــيص كتـــاب "Le Nouveau Capitalism" الرأسماليـــة الجديدة: تأليف "Dominique Plihon" قراءة وتلخيص جورج طرابيشى جريدة الحياة ٢٠٠٢/٤/٧.

يقول الرسول ﷺ عن إيمان أبى بكر بأنه: «لو وزن إيمان أبـى بكـر بإيمان الأمة لرجح إيمان أبى بكر»[1]. إذن الرجل صاحب مثل هذا التصـور هو أبو بكر، والحديث النبوى هو الدليل على ذلك. فتعالوا نحاول سبر غـور تصور هذا الرجل قليل الكلام.

عندما سئل أبو بكر ﷺ عن: أرجى آية فى القرآن الكريم؟ أى عن الآية التى تجعل رجاءه فى رحمة ربه ومغفرته وعفوه، وفى النجاة يوم الحسـاب على أعظم قدر، أجاب بأنها آية:

﴿ قُلۡ كُلٌّ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾[2].

شاكلته: «أى مذهبه الذى يشاكل حاله»[3]، أو: «كل إنسان يعمل على ما يشاكل أخلاقه التى ألفها»[4]. أى بالمعنى الدارج بين أبناء بلدنا: «كل يعمـل بأصله». كيف رأى أبو بكر أعظم الرجاء فى الآية السابقة؟ وماذا يريـد أن يقول؟

كأن أبو بكر يريد أن يقول - فى زعمى- أنه إذا كان كل يعمل علـى شاكلته، فما هى شاكلة الإنسان؟

- ضعيف:

﴿ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾[5].

- لايملك العزم وكثير النسيان:

---

١) رواه البيهقى فى الشعب.
٢) (٨٤) الإسراء.
٣) كلمات القرآن مرجع سابق.
٤) زبدة التفسير مرجع سابق.
٥) (٢٨) النساء.

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾[1].

- خصيم مبين (عدو موغل فى الخصومة):

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾[2].

- ظلوم كفار:

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[3].

- كثير الجدل:

﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلاً ﴾[4].

- سريع الغرور وشديده وناكر للجميل:

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ ﴾[5].

- سريع اليأس وشديده:

﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴾[6].

---

١) (١١٥) طه.
٢) (٧٧) يس.
٣) (٣٤) إبراهيم.
٤) (٥٤) الكهف.
٥) (٨٣) الإسراء.
٦) (٨٣) الإسراء.

- منوع وجزوع وهلوع: أى يبخل بما اتاه الله من فضله ويمنعه عن الآخر ويصاب بالجزع والهلع الشديدين مع المصاعب والشدائد:

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾[1].

ولنمسك الآن عن الاستطراد فى سرد شاكلة الإنسان حتى لانصاب بالإحباط.

والآن ماهى شاكلة الحق تبارك وتعالى جل فى علاه وله المثل الأعلى:

- إن الله رحمن رحيم.

- إن رحمته تسبق أو تغلب غضبه.

- وأنه يغفر الذنوب جميعاً إلا أن يشرك به.

- وهو غفور رؤوف - حليم - صبور - شكور - كريم...

- «وأن العفو أحب إليه سبحانه من الإنتقام، والرحمة أحب إليه من العقوبة، والرضا أحب إليه من الغضب، والفضل أحب إليه من العدل»[2].

- إن من أسمائه غافر وغفار وغفور، ومنها قاهر وقهار وليس منها قهور.

- «إن النعيم والثواب من مقتضى رحمته ومغفرته وبره وكرمه ولذلك يضيف ذلك إلى نفسه، وأما العذاب والعقوبة فإما هى من مخلوقاته، ولذلك لايسمى بالمعاقب والمعذب، بل يفرق بينهما فيجعل ذلك من أوصافه (يعنى

---

١) (١٩- ٢١) المعارج

٢) حادى الأرواح - ابن قيم الجوزية - المكتبة العصرية - صيدا لبنان طبعة جديدة، ٢٠٠٢، صـ٢٩٣.

الرحمه والمغفره والكرم)، وهذا من مفعولاته (العذاب والعقوبة) حتـــى فـــى الآية الواحدة كقوله تعالى:

﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2]،[3].

– ويقول ابن قيم الجوزية عن قول الرسول ﷺ فى دعائه لربه (والشر ليس إليك) قول أعلم الناس به (يقصد محمد بن عبد الله ﷺ) وأعرفهم بأسمائه وصفاته، فى قوله عن الله: (والشر ليس إليك) ولم يقف على المعنى المقصود (من فهمها بأنها) الشر (لا يتقرب به إليك) بل (المقصود) أن الشر لايضـــاف إليه سبحانه لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ولا فى أسمائه، فإن ذاته لها الكمال المطلق من جميع الوجوه...»[4].

فإذا عمل الإنسان على شاكلته كما أوضحها القرآن، وعمل الحق تبارك وتعالى – وله المثل الأعلى، ولا يسأل عما يفعل – على شاكلته كما أوضحها أيضاً القرآن وكما جاء فى شرح ابن قيم الجوزية الذى قدمناه، فكيف لايعظم رجاءنا، ويختفى يأسنا وإحباطنا وقنوطنا تحت ضربات شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا وسطوات خطايانا وخصوماتنا ونزواتنا وصبواتنا...

هل كان أبو بكر الصديق يقصد ذلك فى إجابته على السؤال عن أرجى آية فى القرآن؟ هل هذا هو التصور الإعتقادى الكامن وراء مثل هذا التفسير لهذه الآية؟ أرجو ألا أكون ذهبت فى زعمى بعيداً.

---

١) (٤٩– ٥٠) الحجر

٢) (٩٨) المائدة.

٣) حادى الأرواح، مرجع سابق، صـــ٢٩٤.

٤) المرجع نفسه.

أريد الآن أن أرصد بعض أعمال هذا الرجل صاحب مثل هذا التصور الإعتقادى الذى يرجح إيمان الأمة.

جرد أعماله من قبل أداء صلاة الفجر حتى أدائه لها:

«صلى النبى ﷺ الصبح ذات يوم فلما قضى صلاته سأل: أيكم أصبح اليوم صائماً؟. قال عمر: أما أنا يارسول الله فقد بت لاأحدث نفسى بالصوم، وأصبحت مفطراً.

وقال أبو بكر: أنا يارسول الله، بت الليلة وأنا أخذت نفسى بالصوم، فأصبحت صائماً.

ثم سأل النبى ﷺ: أيكم اليوم عاد مريضاً؟

فقال عمر: إننا صلينا الساعة ولم نبرح، فكيف نعود المريض؟ وقال أبو بكر: أنا يارسول الله. أخبرونى أن أخى (عبد الرحمن بن عوف) مريض وَجِعُ، فجعلت طريقى عليه، فسألت عنه ثم أتيت المسجد.

ثم سأل النبى ﷺ: فأيكم تصدق اليوم بصدقه؟ قال عمل: مابرحنا معك مذ صلينا فكيف نتصدق؟ وقال أبو بكر: أنا يارسول الله! دخلت المسجد، فإذا سائل يسأل، وإبن لعبد الرحمن بن أبى بكر **(حفيد من أحفاد أبو بكر)** معه كسرة خبز، فأخذتها فأعطيتها السائل، فقال النبى ﷺ: فأبشر بالجنة. أبشر بالجنة.

لذلك يقول بن الخطاب ﷺ: ما سبقت أبا بكر إلى خير قط إلا سبقنى إليه"[١].

عمله اليومى ومرتبه ورزقه:

«كان أبو بكر يعمل فى التجارة ويعيش من كسبه، يغدو كل يوم إلى السوق فيبيع ويبتاع (وظل كذلك أشهراً بعد توليه الخلافة)، فلقيه عمر

---

١) العشرة المبشرون بالجنة، عبد اللطيف عاشور مكتبة القرآن، صـ٢٠- ٢١.

وأبو عبيده وقد أصبح قارضاً إلى السوق وعلى رقبته أثواب يتحير بها فقالا: أين تريد ياخليفة رسول الله؟ قال: السوق. قالا: تصنع ماذا؟ وقد وليت أمور المسلمين؟ قال: فمن أين أطعم عيالى؟ قالا: إنطلق معنا حتى نفرض لك شيئاً، فأنطلق معهما ففرضوا له كل يوم شطر شاه، وفى (الرياض النضيرة) إن رزقه الذى فرضوه له خمسون ومائتا دينار فى السنة، وشاه تؤخذ منها بطنها ورأسها وأكارعها، فلم يكن يكفيه ذلك ولا عياله، وكان قد ألقى كل دينار ودرهم عنده فى بيت مال المسلمين»(١).

وروى أن عمر أنطلق فى طلبه فوجده فى السوق فأخذ بيده وقال: «تعال ها هنا فقال: لا حاجة لى فى إمارتكم. رزقتمونى مالايكفينى ولا عيالى» قال أبو بكر: ثلاثمائة دينار والشاة كلها فزاده عمر وعلى إلى ما طلب ورضى بذلك المهاجرون.

وجدير بالذكر أنه لما حضرته الوفاة قال: «ردوا ماعندنا من مال المسلمين فإنى لا أصيب من هذا المال شيئاً. وأن أرضى التى بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم»(٢).

«ما أعلى أجرك ياخليفة رسول الله ﷺ »

جرد أعمال خليفة رسول الله فى مدة خلافته:

١- إنفاذ جيش «أسامة بن زيد» إلى «البلقاء والداروم» على مقربة من القدس الشريف تنفيذاً لرغبة رسول الله ﷺ .

٢- قتال مانعى الزكاة فيما عرف بحروب الردة، وهى فتنة لولا أن أخمدها أبو بكر، لكان الإسلام الآن مجرد ذكرى تتلى فى بطون المراجع التاريخية بوصفه نحله من النحل التى ظهرت لفترة فى الجزيرة العربية ثم أندثرت، فقد حافظ أبو بكر على الدولة /الأمة بخوضه هذه الحرب وإنتصاره فيها.

(١، ٢) العمل فى الإسلام، مرجع سابق، صـ٨٢.

٣- فتح العراق ودخول أرض السواد تحت إمرة المسلمين بقيادة خالــد ابن الوليد.

٤- فتح الشام وقتال الروم بإرسال جيوش أربعة بقيادة «يزيد بن أبــى سفيان» نحو دمشق، «وشرحبيل بن حسنة» ووجهته الأردن، «وأبى عبيدة بن الجراح» ووجهته حمص، «وعمر بن العاص» ووجهته فلسطين.

٥- الأمر ببدء جمع القرآن المكتوب ومن صدور الحفاظ بعدما استحر القتل فى الحفاظ فى معارك الردة.

٦- اختياره لعمر بن الخطاب كخليفة للمسلمين من بعده.

كل ما سبق هو حجم العمل الصادر من التصور الإعتقادى الذى زعمنا إيضاح شذرة بسيطة منه.

هل تدرون المدة الزمنية التى تولى فيها أبو بكر الحكم كخليفة لرســول الله ﷺ ؟

هى عامان ونصف العام أو ما يزيد قليلا!!!.

* * *

الفصل السادس
طواف حول العمل

١- إنه عمل غير صالح:

أطلب من القارئ العزيز أن يتحلى ببعض الصبر لأن المقدمة طويلة بعض الشيء. لكنها ضرورية لإيضاح المقصود.

اللغة هى وعاء الفكر، والدلالة اللغوية تحدد إلى مدى بعيد المفهوم عن شيء أو أمر ما، بل وتحدد أيضاً الصورة الذهنية عن ذلك الشيء فى الوعى الفردى والجماعى، وبذلك توجه التصرف الفردى.

اللغة كلمات وتركيبات وتعبيرات، ورأس الكلمات الأسماء. التقاء الصفة بالذات تولد الأسماء. عندما تلتقى صفة الكرم مع ذات «على» مثلاً، يصبح اسمه كريم وهكذا. إذا التقت صفة «العمل» بذات إنسانية ينتج لنا إسم «العامل».

والإسم باعتباره كلمة له شقان: «(الدال) هو الجانب المحسوس «بالإنجليزية: سنسبل Sensible» من الكلمة، فهو الصورة الصوتية أو مساويها المرئى (علامة المرور الخضراء مثلاً). أما (المدلول) فهو الجانب المفهوم من المعنى «بالإنجليزية: انتلجيبل Intelligible». وكان بوسعنا أن نقول ببساطة أن الدال هو الإسم والمدلول هو المسمّى، وأن الدال هو (العلامة التى تشير إلى شيء) والمدلول هو (المشار إليه). ولكن حيث أن كلمة (دال) لاتشير إلى كلمات وحسب، وإنما تشير إلى النظم الإشارية أيضاً «علامات المرور - الرموز..» فإننا نؤثر استخدامها لأنها أشمل»[1].

---

١) اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود، عبد الوهاب المسيرى، الشروق، ٢٠٠٢م، صـ٢٠١- ٢٠٢.

اللغة هى وسيلة التعبير عن النية أو التصور الإعتقادى أو النظرة للعالم أو النظرة الكونية وكلها مسميات تعبر بإختلافات محدودة عن معنى مماثـل، يمكن أن نضم إليها تعريف «الدكتور المسيرى» عن ما يسـميه «النمـوذج المعرفى» حيث يقول: «نحن نذهب أن ثمة نموذجاً معرفياً كامنـاً وراء كـل قول أو ظاهرة إنسانية، هذا النموذج هو مصدر الوحدة وراء التنـوع، وهـو الذى يربط بين كل التفاصيل فتكتسب معنى ودلالة، وتصبح جزءاً من كـل، وليس مجرد معلومة جديدة أو طرفة فريدة»[1]. ويستطرد قائلاً: «النموذج هو تجل متعين لرؤية الإنسان للكون، التى تدور حول محاور ثلاثـة: الإلـه – الإنسان – الطبيعة. وهى محاور مترابطة تمام الإرتبـاط... وإدراكنـا هـذا الترابط هو مايجعلنا نرى أن الإنتقال من اللغوى (الصور المجازية – علاقـة الدال بالمدلول)، إلى الدينى (رؤية الإله)، إلى النفسى (مضمون الإدراك)، أمر متسق...»[2].

يزعم المسيرى – مع تأييدي لهذا الزعم – أن البداية فى تكوين النموذج المعرفى الكامن (النية – التصور الاعتقادى – الرؤية الكونية..) تبـدأ مـن اللغوى، ولهذا –أقول – كانت الكلمة فى البدء (التوراة). كما أن أول كلمة من الوحى القرآنى المنزل على رسول الله ﷺ كانت «إقرأ» والقراءة هى لكلمات اللغة. ثم تلا ذلك الحديث عن الكتابة، والكتابة هى أيضاً للغة ولكلمات، حيث يقول القرآن الكريم:

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾[3]...

القلم للكتابة. لهذا وبهذا، ارتفع آدم على كل مخلوقـات الله، وأسـتحق

١) المرجع السابق، صـ٥.
٢) المرجع نفسه.
٣) (١–٤) سورة العلق.

الخلافة عن الحق تبارك وتعالى فى أرضه، وألزم الله الملائكة بالحجة البالغة، وأمرهم بالسجود له. لماذا؟ لأن آدم أوتـــى العلـــم «بالأســـماء»، أو «الـــدال والمدلول»، أو بالكلمة. يقول القرآن الكريم:

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1].

«الأسماء» هى السر الذى فاق به آدم كل المخلوقات حتى النورانيـــة منهـــا. لذلك يمتن الله على الإنسان بهذه النعمة الهائلة حين يقول له وعنه:

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾[2].

اللسان والشفتان هما أعضاء إخراج أو إسكات الصورة الصوتية للكلمة التـــى تعبر عن المضمون الإدراكى الكامن وراءها، والعينان لمشـــاهدة المســـاوى المرئى للكلمة.

الآن، لماذا كل هذه المقدمة الطويلة؟ وما علاقة ذلك بالعمل؟ كلما أنظر إلى العالم المتقدم، والشعوب الغربية منه على وجه الخصوص، وأراها تعمل بدأ ب وجد وإجتهاد، وتفان وإخلاص، وبشغف وإتقان، ثم أنظر إلى أخلاقيات العمل التى يتمسك بها الغربيون جميعهم من مثل «الإجتهاد – الإقتصاد فـــى التكلفة – الأمانة – الوثوق أو العول (أى أن أى إنسان يمكنه أن يُعَوِّل علـــى المنتج الغربى) – الدقة والحرص على التفاصيل الدقيقة – الصبر – الكمـــال (قدر الطاقة) – الإستهلاك المؤجل – التطوير الدائم – القـــوة والمتانـــة»[3]. ماهو السر وراء ذلك؟ هل يمكن الوصول إلى سر ذلك عن طريق محاولـــة

---

١) (٣١–٣٢) البقرة.

٢) (٧–٨) سورة البلد.

٣) خواء الذات وأدمغة مستعمره. د. مراد هوفمان طـ١/٢٠٠٢ الشروق الدولية تعريب عادل المعلم/ نشأت جعفر، صـ٦٧.

إكتشاف أو الوصول إلى «النموذج المعرفى» - بتعبير د. المسيرى - الكامن وراء ذلك للحصول على فهم ما؟ وللوصول إلى النموذج المعرفى علينا البدء من اللغة كما أسلفنا.

عند البحث فى اللغة الإنجليزية نجد أن كلمة Labor / Labour تعنى: «العمل، وبخاصة العمل الجسمانى الشاق، وتعنى مهمة - وعمال»[1]. كما أنها تعنى: «عملية ولادة طفل» إضافة إلى «العمل والمحاولة الشاقة»[2].

الآن، هل لأن الكلمة - فى اللغة عند الغربيين- التى تعبر عن العمل، هى نفسها تعبر عن الولادة، يكمن السبب فى أن هذا المفهوم المعرفى الكامن وراءها يؤدى إلى التفانى الكامل فى العمل؟ هل لأن «العمل» لغة يساوى «الولادة» هم يكدون ويشقون ولا يتنازلون إذا تعلق الأمر بأخلاقيات العمل؟ هل العمل فى الوعى الفردى والجمعى الغربى يعنى خروج «ذات إلى الحياة» فى طريقها إلى الاستقلال عن الذات الفردية القائمة بالعمل، لكنها ترتبط بهذه الذات العاملة برباط الدم والحياة والامتداد، وتقع على هذه الذات العاملة المسئولية عنها؟ بالتالى لامجال ولا مساومة ولا تقاعس حتى لاتخرج هذه الذات ضعيفة ناقصة، أو مشوهة، أو مبتسرة. يقول عالم الاقتصاد الهندى «مهروترا Mehrotra» فى نقطه من «عدد من النقاط، يحدد فيها الملامح الرئيسية لخصائص العمل من وجهة نظر اقتصادية واجتماعية أن: العمل هو شىء لا ينفصل عن العامل ذاته، فالعامل يبيع عمله، ولكنه هو ذاته يبقى ملكاً لنفسه»[3].

هل يكمن فى اللغة الفرق بيننا وبينهم؟ هل يفسر ذلك لماذا يعملون ولا نعمل؟ ويكدون ويكدحون ونحن نكسل؟ ويهتمون بالتفاصيل الدقيقة ويتقنون ونحن لانعبأ؟ ويتوخون الوثوق والأمانة ونحن نخون؟ هل لو كان للعمل فى

---

١) قاموس اكسفورد Advanced Learners، طـ ٥.

٢) القاموس السابق.

٣) العمل وقضايا الصناعة فى الإسلام، مرجع سابق، صـ١٨.

لغتنا أصل مثل ذلك، أو كان فى كتاب لنا معنى مقارب، أو تشبيه مماثل، فقد كان حالنا فى العمل سوف يتبدل، وموقفنا منه سوف يتغير؟

فى قصة سيدنا نوح فى القرآن الكريم، وقت الطوفــان، ونــوح علــى سفينته، جرى هذا الحديث بين الحق تبارك وتعالى، وبين رسوله نوح عليــه السلام، وهو يدعو ربه ويرجوه ويطلب منه أن يهدى إبنــه، ويهيــئ لــه أن يركب معه فى سفينته حتى يتسنى لــه النجاة من المصير المحتوم لقومه من المكذبين. وفى ذلك يقول القرآن الكريم:

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ ﴾[1].

القرآن يصف (ابن) نوح بأنه (عمل) غير صالح. القرآن يصف الإبــن بأنه عمل. العمل فى المفهوم القرآنى هنا هو الإبن. عملك هو إبنك. العمل فى المفهوم القرآنى يتجاوز المفهوم اللغوى الجرمانى بأن العمل هــو الــولادة، ليصل إلى حد أن العمل هو الإبن الناتج من الولادة. العمل هو عمليــة ولادة طفل قد تمت وانتهت، وخرجت من ذات العمل ذات أخرى منفصــلة تمشــى وتدب على سطح الأرض، وتحيا وتعيش وتتنفس، مملوءة بالحيــاة والحركــة، وقد تكون صالحة، وقد تكون عكس ذلك كما فى حالة سيدنا نوح عليه السلام، حيث يحذره القرآن هنا من هذا العمل غير الصالح بقول الحق تبارك وتعالى لــه:

﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[2].

---

١) (٤٥-٤٦) سورة هود.

٢) (٤٦) هود.

وهنا يتبرأ نوح بسرعة، وينيب إلى ربه تائباً مستغفراً من هذا العمل غير الصالح قائلاً:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾[1]،

نتيجة العمل غير الصالح هو الخسران، ما لم تتداركك مغفرة ورحمة الله.

العمل مثل الإبن، هو من ذاتك، لكنه ذات تصبح منفصلة بمجرد انتهائك من أدائه، وفراغك من إنجاز العمل. لكن المسئولية عن العمل مستمرة استمرار مسئوليتك عن إبنك أو أبنتك، والرسول ﷺ يقول: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته... والرجل راع على أهله وهو مسئول»[2]، وقوله صلى الله عليه وسلم: عن ابن عمر «.... والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده وهى مسئولة عنهم»[3]. وقوله عن عبد الله بن عمرو بن العاص: قال لى النبى ﷺ: «وإن لولدك عليك حقاً»[4]. فهل يسع مؤمن إهمال المسئولية، وإهمال تأدية الحق؟ هل ترضى أن يكون إبنك فى حال قدرتك واستطاعتك ناقصاً أو مشوهاً أو معوقاً أو قبيحاً؟... كذلك العمل.

ثم إذا كان العمل هو الإبن، ألا يجدر بالإنسان أن يحب العمل كما يحب أبنه. هل يكره أحد أبنه إلا أن يكون غير سوى؟ العلاقة هنا علاقة محبة ورحمة ورحم وأبوه ومسئولية وإمتداد... العمل حب جارف.

وإذا كان القول الشائع الشعبى السائد أن الولد هو إمتداد للوالدين يصبح العمل بالقياس – إمتداد لحياة الإنسان العامل، وهنا نضع يدنا على بعد آخر لحديث رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم أنقطع (عمله) إلا من ثلاث: صدقة

---

١) (٤٧) هود.
٢) رواه البخارى ومسلم.
٣) رواه البخارى ومسلم.
٤) رواه مسلم

جارية، أو علم ينتفع به، أو (ولد) صالح يدعو له، »[1]. العبادة تنقطع نهائياً بإنتهاء حياة الإنسان، أما العمل فهو حياه أخرى ممتده غير متناهية وخالدة، إمتداد لحياة الإنسان بمعنى النفى للهلاك والفناء، لايسرى عليه مايسرى على العبادة، وما يسرى على حياة الإنسان فى الأرض. العمل خلود وحب ومسئولية ورحم وإمتداد وبقاء وإكتمال... العمل الصالح هو ما أعنى.

القرآن والحديث النبوى كما أسلفنا يشيران إلى معنى لغوى، قد يكون أقوى من الموجود فى كلمة (Labor) عن العمل، فماذا وراء موقفنا من العمل؟ هل هو مفهوم مغلوط عن الدين؟ وماهو ومن هو السبب وراء ذلك؟

هل نصل إلى نتيجة محبطة ومخيفة بأنه: حتى اللغة لم تفلح - كما أفلحت مع الغرب - فى دفعنا إلى العمل وإلى إتقانه؟

أم هل لأن اللغة قد انتهكت فيما بيننا، واستغلت، وأهملت، واغتصبت حتى فقدت الكلمة شرفها ومعناها؟ وتاه الدال عن المدلول.. وضل الإسم عن المسمى.

لابد أن نبدأ من أول الطريق... أعنى أن تسمى الأشياء بأسمائها دون تحريف أو تضليل أو تدليس....

لقد كرمنا الله بالكلمة، ورفعنا فوق مخلوقاته بعلم الأسماء، فلابد من إعادة الاعتبار للكلمة، والإسم، واللغة، وإقتران القول بالفعل...

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾[2].

---

١) صحيح مسلم، حديث ٤١٩٩.
٢) (٢-٣) سورة الصف.

٢- حوار في المسجد النبوى - المفهوم الإختزالى:

عادة ما يميل الإنسان على مستوى الفرد أو الجماعة، أو حتى الأمة وأياً كانت درجة تعليمه أو ثقافته أو انفتاحه إلى الاختزال: يختزل الإنسان إلى مادة فقط، والتاريخ إلى حتمية، ويُختزل الزمان والمكان ويتوقف ويلغى لتتحول دولة أمه إلى مجرد أرض بلا شعب، حتى نصل إلى الاختزال عند بعض كبار المفكرين - أو هكذا يسمونهم - إلى إعلان نهاية التاريخ.

الدين هو أهم وأخطر وأكثر الأمور التى تعرضت فى غالبية الأحيان إلى الاختزال على يد الإنسان بوعى أحياناً، وبدون وعى فى معظم الأحيان، حيث يقول القرآن الكريم:

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ ﴾[1].

وأختزل بعض المسلمين الدين الإسلامى إلى مظاهر وشكليات واختلافات بعيدة عن الجوهر، وأصبح التركيز على ظاهر العبادات -مع الاعتراف والتسليم بأهميتها ووجوبها لأنها من أركان الدين- وتضخم فقه العبادات وزاد وتعملق على حساب ماعداه، وتقزّم إلى جانبه أو شبه أختفى فقه العمل، والفقه السياسى والاجتماعى، وتمسك الناس فقط بالآية:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[2]

ونسوا أو تناسوا أو أنسوا، أو لم يدركوا معنى قوله:

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[3]،

---

١) (٩١) سورة الأنعام.

٢) (٥٦) الذاريات.

٣) (٦١) هود.

حتى أصبح العمل الصالح داخل الوعى الفردى والجمعى لمعظم المسـلمين، وهو العمل الذى دائماً ما يقرن بالإيمان فى معظم آيات القرآن، يعنى المزيـد من العبادات، ولا يقترب بالقدر الواجب من معنى العمل اليـدوى الإنتـاجى، والعمل التنموى الإعمارى، وتدنت مرتبة العمل وأولويته ووجوبيته وأنحدرت إلى قاع سحيق ماله من قرار فى تصور معظم المسلمين.

ونتيجة للمعنى الاصطلاحي داخل الفقه الإسلامي لما يسمى «بفـرض العين» وهو بالمعنى اللغوى عين على كل فرد، أى يأثم الفرد بإهماله أو عدم إتيانه، وكل العبادات بالطبع من فروض العين، فزاد الاهتمام بها بشكل هائل - وهذا حق وصحيح ومطلوب - لكن تضاءل فى الوقت نفسه، ونتيجة أيضاً للمعنى الاصطلاحي، الاهتمام بما يطلق عليه «فرض الكفاية» والذى يعنى أن وجوبه على الكفاية أى يجزى أداء البعض له عن قيام المجموع به بينما يأثم الجميع إذا لم يقم أحد بأدائه. يندرج تحت فروض الكفايات كل مـاهو غيـر العبادة - على وجه التقريب- من عمل إنتاجى تنمـوى إعمـارى، وجهـاد وتعليم، وسياسة، واجتماع، وطب، وهندسة، وفقه دسـتورى واقتصـادى أو بالاختصار جميع ما يلزم من مظاهر القوة فى المجتمعات، أو بدون إخـلال كل ماهو لازم لبناء مجتمعات صحيحة ودول قوية وحضارة راسخة. أصـبح كل مسلم شديد الحرص على أداء فروض العين، خوفاً من الوقوع فى الإثـم والمحظور، وطلب للفوز والنجاة والفلاح فى الآخرة، وبـات أداء فـروض الكفايات حكراً على قلة من المهمومين، وتفشى الاعتماد على الآخر فى أداء فروض الكفايات مما يخشى معه الوقوع فى هوة ألا تجد فروض الكفايات من يؤديها.

وعلى الرغم من أن بعض الفقهاء والعلماء والمفكرين المسـلمين قـد تنبهوا إلى هذه المشكلة الخطيره، وحذروا فى كتاباتهم من أن «فرض الكفاية» أولى وأهم وأخطر من «فرض العين»، حيث أن سقوط فرض العين وإهماله يؤدى إلى إثم الفرد أو الأفراد المعدودين، فى حين أن إهمال فرض الكفايـة يعنى سقوط الأمة جمعاء فى هوة الإثم والخطيئة، ناهيك عن هوة التخلف.

لكن المعنى الإصطلاحى، وسلطان اللغة مازالا يعملان لصالح فرض العين ضد فرض الكفاية، وأضيف إليهما أن فرض الكفاية يحتاج إلى البذل من أجل الآخر فهو أشق على النفس من فرض العين، كما زاد اختزال معنى فرض الكفاية إلى حد يثير الرعب فى الوعى الفردى والجمعى لمعظم المسلمين، فما أن تسأل أيا منهم عن مثال لفرض الكفاية لأنبرى مجيباً بسرعة: صلاة الجنازة، حيث يأثم مجموع الناس فى المسجد إذا لم يقم بأداء صلاة الجنازة على الميت بعض الموجودين فيه منهم. اختزل فرض الكفاية الذى يشمل كل مايدعم وجود الأمة، ويوفر لها القوة والرخاء والمنعة والعزة، إلى الشعيرة – تعبدية أيضاً – التى يودع بها الإنسان المسلم أيام حياته على الأرض، منتقلاً إلى أول أيام أخراه بين يدى مليك مقتدر!!.

بعد هذه المقدمة الطويلة، تعالوا معى إلى حوار دار فى المسجد النبوى بين الرسول ﷺ وبين «أبى أمامه» وهو أحد الصحابة المشهورين حين رآه الرسول ﷺ جالساً داخل المسجد فى غير وقت صلاة فابتدره سائلاً عما به فقال:

– هموم لزمتنى، وديون غلبتنى فقال له النبى ﷺ: «ألا أعلمك كلمات إذا قلتها قضى الله دينك، وفرج همك»؟

– قال: بلى يارسول الله.

قال صلى الله عليه وسلم: قل: «اللهم إنى أعوذ بك من (الهم والحزن)، وأعوذ بك من (العجز والكسل)، وأعوذ بك من (الجبن والبخل)، وأعوذ بك من (غلبة الدّيْن وقهر الرجال)» [1].

عادة ماتجد هذا الحديث ذا المضمون الهائل فى كتب الدعاء!!، وصُنِّف تحت عناوين من قبيل «ما يقال لتفريج الهم وقضاء الدين» – ولا إعتراض لنا على ذلك – لكنى أزعم أن الإكتفاء بهذه النظرة لهذا الحديث هو إختزال

١) كان الرسول ﷺ يكثر من هذا الدعاء – البخارى.

يصل إلى درجة الخلل، إن لم يصل إلى درجة الخيانة من ناحية الشكل ومن ناحية المضمون.

ألا يمكن النظر إلى هذا الحديث على أن الرسول عليه الصلاة والسلام يحث الرجل على ترك المسجد فى غير أوقات الصلاة، وهى فى الوقت نفسه أوقات العمل، ويحذره من التقاعس والاستسلام بأسلوب تربوى راق، ويلفت انتباهه إلى أن القعود عن العمل وإهماله سوف ينتج عنه متتالية من الأمراض النفسية والاجتماعية والاقتصادية، هى أمراض ثمانية تبدأ بالهم والحزن، ثم العجز والكسل، وصولاً إلى الجبن والبخل، وانتهاء بغلبة الدين وقهر الرجال.

تبدأ هذه المتتالية بالقعود عن العمل، أو إهماله، أو افتقاده عندما لا تتوافر فرص العمل الكافية، أو عند عدم توفير الوسائل التى تعين على الإنجاز وتيسير العمل، مما يؤدى إلى انخفاض الإنتاجية ويقل العائد والدخل وعندها يبدأ:

أ - الهم:

وهو مايحيل ليل الإنسان إلى جحيم، ونهاره إلى تعاسة ويبدد قواه ويسرق منه السعادة. وقد قال الإمام على رضى الله عنه إن الهم هو أقوى جند الله فى الكون لأنه يغلب النوم الذى هو أيضاً من جند الله والنوم يغلب الإنسان سيد الكون.

ب- الحزن:

يترتب على الشعور بصعوبة الحياة وعلى أنها تحولت إلى سلسلة من العوائق والمصاعب التى تستعصى على القهر، أن يزيد الشعور بالإكتئاب والحسرة، وتصبح الدنيا مظلمة والحاضر بغيض والمستقبل مخيف.

جـ- العجز:

الإنسان المهموم والحزين والمكتئب عندما تتراكم عليه كل تلك الرزايا فلا عجب أن يفقد مع إفتقاده للأمل كل قواه، ويصبح فى حالة من عدم الرغبة

أو القدرة على الحركة، وفقدان إرادة التغيير والخروج مما هو فيـه ويـزداد نكوصه وتنعدم فيه الدوافع على الحركة والسعى والمجاهدة والنضال والكدح والاجتهاد.

د- الكسل:

قلة الحركة وانعدام الحافز وفقدان القوة وتراكم الهموم تؤدى إلى الفقـر والعوز والحاجة اللذين يقودون مع ماسبق إلى مزيد مـن القعـود والكسـل والتقاعس ومزيد من ضياع الهمة واختفاء إرادة التغيير والحركة.

هـ- الجبن:

يقع الإنسان مع الفقر والجوع والكسل رهينة فى يـد الآخـر والغيـر، وأسيراً للخوف من اليوم ومن الغد وتتملكه الخشية والرهبة من القادر علـى إعطائه، وتصبح خشيته من المخلوق أكثر من خشيته من الخالق وكفى بـذلك جبناً.

و- البخل:

كيف يستطيع من لا يجد، ولا يعمل لكى يجد، ومن يرهـب ويخشـى الآخر، أن يكون إلا بخيلاً شحيحاً، لا يقدر ولا يفكر فى العطاء.

ز- غلبة الدين:

الهم مع الحزن مضافان إلى العجز والكسل لا يتوالد عـنهم إلا زيـادة الدين وتضخمه حتى تفوق قيمه الدين القدرة على أدائه وبخاصـة إذا كانـت القدرة والإرادة والهمة متهالكين ناهيك عن أن يكونوا معدومين، ويرتفع الدين فى متوالية شبه هندسية إلى أرقام هائلة.

ح - قهر الرجال:

لانهاية لما سبق إلا نهاية إنسحاق الإنسـان الفـرد، وكـذلك إنسـحاق الجماعة واستعبادها وسلبهما حرية الإرادة تحت قهر الحاجة وتـراكم الـدين

وغلبته عليهم، ويؤدى ذلك على مستوى الفرد والجماعة بل والأمة إلى إرتهان الإرادة السياسية والإستقلال الوطنى لصالح تحكم المانح أو المقرض أو ماشئنا من مسميات (البنك الدولى - صندوق النقد - نادى باريس - الدول المانحة ....) ولاشيء أشد مضاضة ولا مصيبة تفوق مصيبة أن يعيش خليفة الله فى أرضه وأكرم مخلوقاته عليه مقهوراً مرتهن الإرادة.

نظرة فاحصة إلى العالم الثالث الذى ننتمى نحن إليه بغير تبرير - ولكن بإمتياز - تكشف لنا الإنارة الساطعة التى يلقيها هذا الحديث مبيناً بدقة تجل عن الوصف متتابعة المصائب التى يجلبها إهدار العمل.

لم تكن المسألة إذن تعليم «أبى إمامة» والأمة من بعده مجرد دعاء يتلى فقط، لكنها أمر لأبى إمامه والمسلمين بالنهوض سريعاً من مجرد الجلوس وعدم الحركة والإندفاع نحو العمل كبداية لحل المشكلة - العمل الإنتاجى والتنموى والإعمارى - وتجنباً للوقوع فى الدائرة الشريرة المفرغة للمتتالية التى ذكرها النبى ﷺ ، بل هى أيضاً وضع «دستور» حياه لإنسان مكلف بالعمل من قبل الذى خلقه فسواه فعدله، وكرمه بالخلافة فى الأرض، ولم يرض له إلا بالعزة والكرامة وإرتفاع الجبين، تغشاه الحرية التى ترفض «قهر الرجال».

اختزلنا هذا الحديث إلى مجرد دعاء باللسان، مع أن الوصية تشير إلى أسلوب حياه عامرة بالنشاط والحركة، والإجتهاد والكد، والشجاعة والكرم، والوفرة والعزة والحرية والعطاء، عن طريق بيان النقيض لما سبق إذا لم يعمل الإنسان بكل قواه، فالأمور تعرف بأضدادها.

العمل أولاً، ثم يأتى بعد ذلك دور الدعاء.

٣- إضافة القيمة والقيمة والمضافة: Added value:

قلنا إن الإيمان هو نية أو فقه قلبى أو تصور إعتقادى ومعه عمل يصدق النية أو التصور الإعتقادى فى عالم الواقع.

والإيمان يتطلب الطاعة، فعندما يطلب الحق تبارك وتعالى من الإنسان أن يعتنق ويلزم ويعمل على إشاعة القيم (المفرد: قيمة) التالية (على سبيل المثال):

أ- الأمانة:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾[١]،

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[٢].

ب- رعاية العهد:

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾[٣].

جـ- العدل والقسط:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ......﴾[٤]،

﴿ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ .....﴾[٥]،

﴿ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ﴾[٦].

---

١) (٥٨) النساء.
٢) (٢٧) الأنفال.
٣) (٨) المؤمنون.
٤) (٩٠) النحل.
٥) (١٣٥) النساء.
٦) (٨) المائدة.

د- الإحسان:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ....﴾[1]،

﴿ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2].

هـ- الصدق:

﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[3]،

﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ ﴾[4].

و- التقوى:

﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[5].

ز- وفاء الكيل والميزان:

﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ ﴾[6]،

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾[7].

فمقتضى الإيمان أن يعى الإنسان هذه القيم فى تصوره الإعتقادى ثم أن يعمل بها ووفقاً لها وتأميناً لوجودها وحماية لها من الإنتهاك على مقتضى الواقع.

والمنفعة أيضاً قيمة

---

١) (٩٠) النحل.
٢) (٩٣) المائدة.
٣) (٣٣) الزمر.
٤) (١١٩) المائدة.
٥) (١٩٧) البقرة.
٦) (٨٥) هود.
٧) (٩) الرحمن.

﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[1]،
﴿ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾[2]،
﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾[3]،

وأينما توجد المصلحة فثم شرع الله، لأن الشارع لم يقصد إلا مصلحة المخلوق.

وهناك من يعرّف القيمة بأنها: «هى الشىء ذو العائد الذى يلبى حاجة، أو ذو الأهمية للإنسان الفرد»[4]، ويقسّم القيم إلى:

- « قيم نهائية Terminal (end) Values: من مثل:
  - الإحترام الذاتى.
  - الحياة الرغدة.
  - الأمان الأسرى.
  - الحكمة.
  - الشعور بالإنجاز.
- وقيم وسيلية Instrumental Values: من مثل:
  - الأمانة.
  - الإستقلالية.
  - الطموح.
  - الشجاعة.
  - تقديم العون»[5].

---

١) (١٧) الرعد.
٢) (٥) النحل.
٣) (٢٥) الحديد.
٤) Modern Human Relations، مرجع سابق، صـ٧٤.
٥) المرجع نفسه.

وسواء آخذنا بالقيم فى التقسيم الأول أم الثانى، فنحن نعنى أنه لا عمل إذا لم تسنده قوه، ولا صدق مالم يتوفر الأمن، ولا عهد ما لم يصاحبه أمان، كما أنه لا احترام ولا رغد فى الحياة ولا شعور بالإنجاز إذا أهدر العمل. العمل هو القيمة العليا التى تدعم أصناف القيم الأخرى وتؤثر عليها وتبنيها وترسخها وتحميها كما أسلفنا.

وإذا لجأنا إلى بعض تعريفات العمل السابق ذكرها من مثل «أن العمل هو الجهد العقلى والبدنى المبذول بشكل جزئى أو كلى لغرض نافع غير التسلية التى قد تستمد من العمل»[1]، أو أن العمل هو «إجهاد ذهنى أو عضلى يبذله الإنسان لخلق المنفعة أو إستظهارها». وقد يجتمع كل من «الإجهاد الذهنى والعضلى فى عمل واحد»[2]. يصبح أن الاجتهاد أو الكد أو الكدح أو الجهد العقلى والبدنى الذى يبذله الإنسان هو (القيمة) التى يضيفها الإنسان إلى موضوع العمل داخل الطبيعة، لتظهر المنفعة فى النهاية وتنبثق من موضوع العمل.

المسكن هو القيمة المضافة للحجر والخشب، ونقاوة الماء ليصلح للشرب هى القيمة المضافة للماء أصل الحياة ودونها الهلاك. رفع الماء لرى الأرض هى القيمة المضافة لهذا الماء حتى يتسنى سقى الزروع، وصرف ماء الرى قيمة أخرى لضمان إستدامة الزراعة. استصلاح الأرض هى قيمة مضافة للأرض. القيمة المضافة إلى رقيقة السليكون فى الأجهزة الإلكترونية، هى التى جعلت سعرها يوازى سعر العديد من أطنان الرمل التى تملأ الصحراوات.

القيمة المضافة لرفع سلطان الطبيعة وحتمياتها عن كاهل الإنسان، هى التى تكمن وراء تحرره واستقلاله وهى قيمة لا تقدر بمال ولا بغير المال.

---

١) تعريف عالم الاقتصاد (مارشال) /قضايا العمل والصناعة فى الإسلام مرجع سابق، صـ١٧.

٢) العمل فى الإسلام، مرجع سابق، صـ٥١.

القيمة المضافة إلى الجرانيت والصخر فى المسلة الفرعونية، وفـى أعمـال «مايكل انجلو»، و«هنرى مور»، «ومختار» هى التى تشـكل الفـارق بـين الجرانيت فى الجبل، وفى وقعه الوجدانى على الإنسـان مـن خـلال هـذه الأعمال.

العمل هو الذى يخلق القيمة ويضيفها، وهو الـذى يسـتظهر المنفعـة ويوفرها، والكائن الذى يستحق أن يطلق عليه لقب «الإنسان»، والـذى هـو مخاطب من قبل الحق تبارك وتعالى بهذا الإسم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ ..... ﴾

هو فقط الإنسان الذى يستطيع إضافة القيمة إلى مفردات وعناصر ومكونـات العالم الذى يتواجد فيه، سواء أكانت قيم أخلاقية أو اجتماعية أو اقتصادية أو جمالية.... بشرط أن ينتج عنها منفعة للبشرية.

القيمة المضافة هى المنفعة التى يحوزها الإنسان ويخلقها ويسـتظهرها فى الطبيعة الغفلة من حوله، والتى تقدم نفسها لـه طبقاً لسنة التسخير، والنفع للإنسان هو ما يبقى، وغير ذلك إلى زوال.

هذا على عكس الخامل والكسول والمتقاعس والقاعد عن العمل الـذى استسلم لسلطان الطبيعة، وحتمية الواقع والتاريخ والمجتمع، فأصبح مفردة من مفردات الطبيعة الساكنة كأنما هو بدون حياة، كذلك الذى يبدد الجهد والطاقة والعافية فى ما لا ينفعه ولا ينفع الناس حوله، ولا يجد إلا جهده فى الأضرار والإفساد والشر،

﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ﴾[1]،

﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ

---

١) (٢٠٥) البقرة.

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1].

الجماد والنبات والحيوان ذوو قيمة فى ذواتهم وفى نفعهم لخليفة الله، لكنهم يعجزون عن إضافة قيمة للعالم الذى يحتويهم غير ما يقدمونه من قيمة وظيفية، أما الإنسان المكلف فهو الكائن القادر على إضافة القيمة، وإذا لم يفعل فقد هبط إلى مرتبتهم

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[2]،

لقد ظلموا أنفسهم بعدم إضافة القيمة، وظلم النفس هو أبشع ألوان الظلم.

العمل مطلوب وواجب على الإنسان حتى تكون له إضافة للقيمة أو قيمة مضافة إلى المسيرة الحضارية والتاريخية للإنسانية وبوصفه خليفة لله فى أرضه، متوجاً ذلك بإدخال قضاء الله فى هذه المسيرة، وداحراً للعدوان على قضائه جل وعلا، ومقاوماً للظلم والعنصرية والبغى، وناشراً للحرية والعدل والسلام... والفضائل.

كيف يمكن مقابلة الله عز وجل - وهى حتمية - دونما قيمة مضافة؟ يقول الرسول ﷺ : «لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن شبابه فيما أفناه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه»[3]، هل إضافة القيمة، هو المعنى الكامن وراء استخدام القرآن لكلمة «قدم» يقول القرآن:

---

١) (٧٩) التوبة.

٢) (٥) الجمعة.

٣)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٌ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٍۖ ﴾[1]،

ويقول

﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ ﴾[2]،

ويقول عن حال الكافر – أى الذى لم يعمل ولم يقدم قيمة مثلما أسلفنا كأحد المعانى اللغوية لكلمة الكفر – فى يوم القيامة وهو نادم يتمتم:

﴿ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴾[3]،

وهناك أيضاً من يقول يوم القيامة:

﴿ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴾[4]،

الكافر هو من حجب نعمة الله وسترها بالتكاسل عن استخراجها، والقعود عن العمل على استظهارها فقد كفر النعمة، فى حين أن التراب قدم القيمة المطلوبة منه، فقد حمل الناس وهم إحياء، واحتواهم بعد الممات، فتمنى الإنسان الذى لم يضف قيمة أن يستبدل بنفسه التراب، ويعطينا ذلك المثل من ناحية أخرى معنى العزة، فالإنسان الذى يضيف القيمة، هو الذى له العزة، لذلك يقول القرآن:

﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[5].

وهنا يتضح جلياً المعنى وراء حديث الرسول ﷺ ، عندما صرح وأعلن بوضوح وحزم أمام أصحابه، ومن بعدهم أمته متحدثاً عن العمل وما يكمن

---

1) (١٨) الحشر.
2) (١١٠) البقرة.
3) (٢٤) الفجر.
4) (٤٠) النبأ.
5) (٨) المنافقون.

وراءه من إضافة القيمة فى مسيرة الإنسان».

«لايأتى الناس بأعمالهم، وتأتونى بإحسابكم وأنسابكم»[1].

الحسب والنسب الحقيقيان ينبعان من إضافة القيمة.

---

١) الحديث وارد صـــ٣٦ العمل فى الإسلام مرجع سابق، د. عيسى عبده.

٤- ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾[١]:

ماهى العلاقة بين العمل والرزق؟ أو ماهى العلاقة بين السعى على الرزق وبين الرزق؟ وما السبب وراء الكثير من الغيوم والضباب الذى يحيط بهذه العلاقة بين السعى وبين الرزق فى وعى الكثير منا؟

كثيراً مايقرأ الواحد منا على صفحة من كتاب، أو على لوحة معلقة، أو حتى على مؤخرة سيارة من سيارات النقل العام أو الخاص العبارة التى تقول «لا حيلة فى الرزق...»، والأخرى التى تنبه وتذكر القارئ منا «ابن آدم إجر جرى الوحوش، غير رزقك (لم) تحوش». فهل العبارات التى على هذه الشاكلة هى السبب وراء الضبابية التى تحيط بالعلاقة بين العمل والرزق فى وعى الكثير منا؟ حيث توحى للمرء بأن الرزق لايتوقف على العمل، وأن الرزق المقسوم لنا سوف يصل إلى الفرد منا بغض النظر عن السعى من عدمه.

وحديث الرسول ﷺ الذى يقول: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً (خاوية البطون) وتروح بطاناً»[٢]. فهل يعنى ذلك ارتباط الرزق بالتوكل على الله، أم بالسعى على الرزق مع التوكل على الله؟ حيث المعلوم والمشاهد أن الطيور لا تتوقف عن السعى بدأب وكد واجتهاد من أول ضوء للنهار حتى آخر ضوء له.

ولا يخفى على أى أحد أن الرزق هو من أكبر - إن لم يكن أكبر - هموم الإنسان فى حياته على الأرض، حتى إن الصوفى الكبير أبو الحسن الشاذلى قد تعوّذ «من هم الرزق، ومن خوف الخلق»، ويبدو أن «خوف الخلق» هو التابع الأمين «لهم الرزق»، حيث يخشى الإنسان من المخلوق الذى يعتقد أن رزقه بيده، ولن يصله ولا يصله إلا من خلاله، فيخاف هذا

---

١) الآية (٢٢) سورة الذاريات.

٢) رواه الترمذى وقال حديث حسن.

المخلوق ويحرص على إرضائه لأنه يرى فى ذلك الضمان لعدم انقطاع الرزق عنه ولعل ذلك هو المعنى الخافى وراء قسم الله جل وعلا بنفسه على أن الرزق فى السماء، حيث يقول سبحانه:

﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾[1]،

هنا يقسم الله تعالى بنفسه على أن الرزق فى السماء بعيداً وعالياً عن متناول أى مخلوق حتى ينزع الخوف عن قلوب الذين يعتقدون بأن رزقهم فى يد آخرين، ويرفع الهم عن المهمومين بهم الرزق. وفى نفس هذه السورة يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾[2]،

فيدل ذلك على أن هم الرزق متأصل داخل تلافيف الإنسان إلى الحد الذى يؤكد فيه الحق تبارك وتعالى عند تكليفه للإنسان بالعبادة، وحتى يدفعه إلى التركيز عليها وعدم التشتت بهذا الهم، فهو يخبره بأنه لا يريد منه رزقاً ولا طعاماً، وأن الرزق بيده هو وحده جل وعلا، ثم قرن ذلك بإسمى «القوى» «والمتين» لإنهاء الأشكال وإضفاء مزيد الاطمئنان على الإنسان المكلف.

ويقول أحد الصوفية تعقيباً على الآية عنوان الفقرة "إن الناس تسعى وتكد وتجتهد التماساً للرزق على الأرض، بينما الرزق موجود فى السماء"!! فهم يسعون وراء ما ليس موجوداً على كوكبهم، وأعترف أن ذلك الرأى استوقفنى طويلاً، وأضاف حيرة فوق حيرة الفهم الغائم للعلاقة بين العمل والرزق إذن لماذا العمل؟ ولماذا الكدح؟.

---

١) الآيتان (٢٢- ٢٣) سورة الذاريات.
٢) (٥٦- ٥٨) سورة الذاريات.

نقول وبالله التوفيق إن القرآن يستخدم كلمة «الكسب» فى التعبير عــن الحصول على الحسنات وعلى الخيــر وعلـــى المنـــافع، ويســـتخدم كلمـــة «الإكتساب» عندما يكون العائد هو السيئات والإثم والشر، وفى ذلك يقول:

﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾[1]،

ويقول

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾[2]،

ويقول أيضاً:

﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ﴾[3]،

إذن الكسب هو للحصول على الخير والناتج والمقابل المعنوى والمادى والنفقة والمنفعة والصلاح.

والعمل هو السعى وراء إضافة القيمة، وإظهار آية تسخير الطبيعة للإنسان، وهو وسيلة الكسب، وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ ﴾[4]،

ويقول:

﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾[5]،

والعمل والسعى هو محور قصة الحياة للإنسان على الأرض وذلـــك لقولـــه تعالى:

---

١) (٢٨٦) البقرة.
٢) (٢٦٧) البقرة.
٣) (١١) سورة النور.
٤) (٩٤) الأنبياء.
٥) (١٥) طه.

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾[1].

الآن العمل/ السعى يؤدى إلى الكسب، ومن الكسب ينفق الإنسان على حاجاته وضروراته وعلى الآخر المسئول منه وعلى الزكاة والصدقة....

ويمكن القول أن «الكسب» بالتعبيرات الحديثة وبدون إخلال - هو إجمالى الدخل العام للفرد الناتج عن عمله أو سعيه فى فترة زمنية معينة أو عن مجمل حياته.

أما الرزق المادى فإن لرسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام تعريف يصفه فيه ببلاغة قائلاً: «إنما لك من مالك: ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت»[2]، (وفى رواية «فأبقيت» لأن الصدقة هى التى تبقى لك فى الآخرة)، وبذلك يمكن القول أن الرزق «هو إجمالى الإنفاق العام للفرد على حاجاته عن فترة زمنية معينة أو عن مجمل حياته».

«الكسب» هو إجمالى الدخل للفرد، «والرزق» هو إجمالى إنفاق الفرد من هذا الكسب أو الدخل، لذلك نلحظ فى حديث الرسول ﷺ قوله عن الرزق: «إنما لك من (مالك)...» فإجمالى المال هو الكسب أما الرزق فهو ما «لك» أو ما أنفقته على نفسك من هذا الكسب.

إذن العمل والسعى هو الأساس وراء الكسب. العائد المادى من عملك هو كسبك أى مقدار الدخل العام الذى تحصل عليه وبه تستطيع الحصول على حاجاتك المادية اللازمة لسد احتياجاتك ومنها المأكل والمشرب والملبس والسكن، وقد يتسع ليشمل المركب (السيارة مثلاً) إضافة إلى السفر والرحلات والثقافة والتصدق والإحسان والإدخار...

---

١) (٣٩- ٤١) النجم.

٢)

أما الرزق بالتحديد السالف الذى قال به الرسول ﷺ فى حديث «ما أكلت فأفنيت...» فيعنى ويشير إلى الحاجات الفسيولوجية التى استهلكها الفرد فى مسيرة حياته مضافاً إليها الصدقة التى هى من رزق الآخرة الذى يدفع فى الدنيا، مما يعنى أن من المفترض أن يكون الرزق جزء من الكسب بل إن أفضل رزق الإنسان هو الذى يأتى من كسبه حيث يقول الرسول ﷺ، «ما أكل أحد طعاماً قط خير من أن يأكل من عمل يده»[1].

بذلك فعندما يكون الكسب أكبر من الرزق، فالزيادة قد تذهب إلى إنفاق على الكماليات والتحسينات (السفر والرحلات والاصطياف والسيارة الفارهة والبيت الفسيح والأثاث الفاخر...) وإلى التصدق والإحسان والأعمال الخيرية... وإلى الادخار والوفرة والثراء.

وعندما يكون الكسب مساوياً للرزق ففى مقدور الإنسان إشباع حاجاته الفسيولوجية وتحصيل متطلباته الأساسية دونما إقتناء أو رفاهية أو ادخار أو صدقه، وهو ما يطلق عليه فى لغتنا العامية (الستر) أو الناس (المساتير) بتعبير أحد أساتذة الاقتصاد المرموقين.

أما إذا كان الكسب أقل من الرزق بتعريفه النبوى فهنا إذن الحاجة والإضطرار والإستدانة والضيق والعوز والفقر، وفى النهاية انتظار العون والمساعدة والعطف والتصدق من الآخر أى ترقب أن يعطينا الآخر الذى فاق كسبه رزقه من هذا الفرق والفائض لديه من أجل توفير حاجات المعوز ومن أجل تدبير العجز المالى والمادى نتيجة قصور الكسب عن توفير الرزق.

وهذا هو السر الكامن وراء التحريض والحض القرآنى على التصدق وعلى أداء الزكاة وعلى إقراض الله قرضاً حسناً ليجود من فاض كسبه عن رزقه على من ضاق كسبه عن رزقه حيث أن هناك من:

﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا

---

١) سبق ذكره.

فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ ﴾[1].

فهو عاجز وغير قادر على السعي والكسب لأسباب خارجة عن إرادته.

ويبقى السؤال عن العلاقه بين العمل أو السعى وبين الرزق ماثلاً. وهنا نقول: إن العمل أو السعى هو الأساس فى الكسب، وإذا كان من المفترض أن الرزق للإنسان هو جزء من كسبه، بل أن خير الرزق للإنسان هو الذى يأتيه من كسبه تصبح العلاقة متصلة وهى أن العمل يمثل أساساً لا يمكن تجاهلـه فى الحصول على الرزق للإنسان لكن هناك خاصية إضافية فى رزق الإنسان وهو أن بعض الرزق قد يأتيك من كسب الآخرين، مثل حال الذى يؤول إليه ميراث أو حال الذى تأتيه هدية أو عطاء أو هبه أو منحـه أو صـدقه مـن الآخر، كسبك لابد فيه من عملك، أما رزقك فقد يشارك فيه عمـل وكسـب آخرين. العمل على الأرض والكسب على الأرض أما الرزق فهو يستنزل من السماء لأنه يستلزم الدعاء لله أن يتاح أن يصل لك من كسبك ما يصبح رزقك (فقد يمرض الإنسان ولا يتاح لـه الاستفادة من كسبه بحيث يهنأ بما كسبه)، ويستلزم الدعاء لله عندما يستلزم الأمر مشاركة وعطف الآخر الـذى لـيس لأحد عليه سلطان إلا سلطان الله الرزاق خير الرازقين. كما يمكن أن يكـون كسبك رزقاً لآخرين فى حال تصدقك وزكاتك وميراثك ووصـيتك... وهنـا تصبح مقولتنا «أن لا حيلة فى الرزق» و«ابن آدم أجرى جرى الوحـوش..» سليمتين حيث قد تجتهد وتكد وتكدح ثم لايكفى كسبك لتغطية رزقك، أو قـد يكون كسبك أكبر من رزقك ثم ينتهى الأجل وقد تركت «خيراً» لم يصل إليك من كسبك ولم تنله يدك، بل ذهب «رزقاً» لآخرين.

ويفرق ابن خلدون فى مقدمته بين الكسب وبين الرزق فيتكلم فى «حقيقة

---

1) (٢٧٣) البقرة.

الرزق والكسب وشرحهما، وأن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية»[1]، ويقول: «فالإنسان متى إقتدر على نفسه وتجاوز الضعف سعى فى اقتناء المكاسب، لينفق ما أتاه الله منها فى تحصيل حاجاته وضروراته بدفع الأعواض عنها»[2]، (يعنى أن الإنسان عندما يشتد عوده ويكبر يسعى فى الحصول على المكاسب لينفق منها على حاجاته ويحصل على المال اللازم لدفع قيمة هذه الحاجات)... «فتكون له تلك المكاسب معاشاً إن كانت بمقدار الضرورة والحاجة، ورياشاً ومتمولاً إن زادت على ذلك»[3].

ثم يفرق بين الرزق وبين الكسب فيمضى قائلاً: «ثم إن ذلك الحاصل أو المقتنى إن عادت منفعيته على العبد، وحصلت له ثمرته من إنفاقه فى مصالحه وحاجاته سمى ذلك رزقاً. قال صلى الله عليه وسلم: «إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت»[4]. أى أن الرزق هو مقدار ما حصلت لك ثمرته عند إنفاقه أى وصل إليك واستهلكته. ثم يستطرد ابن خلدون عن ما لا ينتفع به الإنسان من كسبه (أى ما يزيد عن رزق الإنسان أو استهلاكه) فيقول: وإن لم ينتفع به فى شىء من مصالحه ولا حاجاته فلا يسمى بالنسبة للمالك رزقاً، والمُتَملَّك منه حينئذ بسعى العبد وقدرته يسمى كسبا»[5] ويضرب مثلاً على ذلك بالتراث (أى الميراث) فيزيد الأمر وضوحاً بالقول: «وهذا مثل التراث، فإنه يسمى بالنسبة للهالك (المتوفى الذى ترك ميراثاً) كسباً ولا يسمى رزقاً إذ لم يحصل به منتفع، وبالنسبة للوارثين متى انتفعوا به يسمى رزقاً هذا حقيقة مسمى الرزق عند أهل السنة»[6]، ويمضى ابن خلدون قائلاً: «ثم أعلم أن الكسب يكون بالسعى فى

---

١) مقدمة ابن خلدون – دار العلم لبنان، الطبعة السابعة ١٩٨٩، صـ٣٨٠.
٢) المرجع السابق، صـ٣٨٠.
٣) المرجع السابق، صـ٣٨١.
٤) المرجع السابق، صـ٣٨١.
٥) المرجع السابق، صـ٣٨١.
٦) المرجع السابق، صـ٣٨١.

الاقتناء والقصد إلى التحصيل، فلابد فى الرزق من سعى وعمل»[1].

الكسب هو ناتج السعى والعمل، والرزق هو ما نالك من كسبك هذا وذلك هو أفضل الرزق بوصف الرسول ﷺ ، والرزق كذلك هو مانالك من كسب آخرين فهو كذلك ناتج عن سعى وعمل، فلابد للرزق من عمل وكد وإجتهاد «وسعى فى الاقتناء وقصد فى التحصيل» بتعبير ابن خلدون.

لابد من العمل من أجل الكسب ومن أجل الرزق وقد علمتم أن السماء لاتمطر ذهباً ولا فضة، رضى الله عنك يا ابن الخطاب.

---

١) المرجع السابق، صـ٣٨١.

٥- صنم العمل:

هناك تقسيم لأصناف الناس طبقاً لمعنى العمل لديهم وبالنسبة إليهم، حيث يتفاوت الأمر هابطاً من هؤلاء الذين ينظرون إلى العمل كشيء مرغوب إلى أقصى حد، وصولاً إلى الذين ينظرون إليه بكراهية شديدة للغاية. وترتب هذه الأصناف كما يلي.

* أ- مدمنى العمل: Workaholic:

وهو الذى يحصل على الرضا من خلال العمل المستديم. إنه الفرد الذى يستمتع بوجود شيء يفعله فى جميع الأوقات. ويخلط الكثيرون بين «مدمن العمل» وبين «العامل الكفء». ويوجد فى الواقع فرق بين الاثنين. وعلى وجه الخصوص فلمدمنى العمل توجه قهرى لا يمكنهم التحكم فيه تجاه العمل. ينعم هذا الفرد بكونه مشغولاً طوال الوقت، وعندما لا يجد المزيد من العمل تنتابه العصبية ويشعر بالذنب. ويصرح هؤلاء الناس عندما تتعارض مسئوليات الأسرة مع العمل، بأن العمل يأتى أولاً، وبعضهم لم يحصل على أجازة من عدة سنوات.

ب- معتنق أخلاق العمل: Work Ethic:

يؤمن بأن العمل هو نشاط مرغوب، وبأن:

١- من المقبول العمل طويلاً وبإجتهاد كل يوم.

٢- ينبغى على المرء النضال للوصول إلى إنتاجية عالية للوظيفة.

٣- يتوجب على الناس أن تفخر بعملها.

٤- الالتزام، والولاء للمهنة والمنظمة ومجموعة العمل من الواجب تشجيعهما.

٥- يجب على الناس أن يكونوا ذوى إدراكات تتطلع للإنجاز، وأن يجتهدوا من أجل التقدم والرقى الوظيفى.

جـ- معتنق أخلاق القيمة: Worth Ethic:

يعتنقها الذين يعملون لأنهم يرغبون فى إنجاز شيء ذى عائد أو قيمة ويصنف هؤلاء الناس فى أحد مجموعتين:

١- المجموعة الأولى:

يعملون لأن وظائفهم تعطيهم أحاسيس الكفاءة والأهلية والبراعة والسيطرة على الوظيفة. وهم يحبون ما يعملون لإحساسهم بالسيطرة على الموقف، وباحترام الذات.

٢- المجموعة الثانية:

وهم يعملون من أجل عائد شخصى وملموس وواقعى. وهذه العوائد قد تكون المال، أو المكانة (Status) أو التقدير (Recognition) أو الترقى.

د- أصحاب مذهب الراحة: Leisure Ethic:

يصنفون تحت أحد مجموعتين:

١- المجموعة الأولى:

ترى فى العمل التزام ناتج عن سوء الحظ، لكنهم مستعدون للعمل من أجل علمهم بأنه الأسلوب الوحيد الواجب عليهم للحفاظ على مستوى معيشة مقبول. لا يعملون أكثر من الحد الأدنى المطلوب لاحتفاظهم بوظائفهم. عندما يجتهدون فى العمل للحصول على ترقية، فيرجع ذلك فقط إلى أنهم يريدون إنفاق المال العائد فى أنشطة تتيح الابتعاد عن العمل.

المجموعة الثانية:

يعتقدون أن العمل غير مرغوب بالكلية، ولا يمثل إلا عقوبة، وبالتالى لا يمكن أن يربط أى عائد بالعمل*[1].

---

١) ما بين العلامتين (**) مأخوذ بتصرف وتعريب من Modern Human Relations مرجع سابق صـ١٤-١٦

حديثى هنا موجه إلى الصنف (أ) وهو المدمن للعمل، والذى يضع كل ماعداه بعده. وكدأب الإسلام فى وسطيته التى سبق وقلنا أنها ليست بـــاللون الرمادى بين اللونين الأبيض والأسود، ولكنها موقف، وموقف جديد ونظـــرة أخرى، تبتمد جدتها من أن الإسلام يقف بصرامة بالغة إلى جانـــب تحــرر الإنسان من كل سلطان إلا سلطان الخالق جل فى علاه، ويقف بوضوح ضد الطغيان فى أية صورة من حيث أن الطغيان - وهو مجاوزة الحد - يــؤدى إلى تحويل الموضوع الطاغى إلى طاغوت، أى إلى صنم ينفى معنى التوحيد الذى هو بوابة الإسلام إلى حرية الإنسان، والتى تبدأ بنفى الآلهة والطواغيت والأصنام والهوى مع شهادة أن «لا إله» وإثبات الإلوهية لله وحـــده بشـــهادة «إلا الله». لذلك فإن مجاوزة الحد مرفوض على إطلاقها فى الإسلام.

عندما بلغ الرسول عليه الصلاة والسلام أن قوماً قالوا: نقوم ولا ننـــام، ونصوم ولا نفطر، ونعتزل النساء، فكان قوله: «إنما أنـــا أقـــربكم إلـــى الله، وأشدكم منه خشية، ولكنى أقوم وأنام وأصوم وأفطر، وأنكح النســـاء، فمـــن رغب عن سنتى فليس منى»[1]. وقال أيضاً فى مناسبة أخرى: «فإن لجسدك عليك حقا، وإن لعينك عليك حقا، وإن لزوجـــك عليـــك حقـــا، وإن لـــزورك (ضيوفك) عليك حقاً»[2] فعلى الإنسان أن يعطى كل ذى حق حقه، وهذا هـــو «الوسط» الذى يعنى «العدل» لغة.

عندما تتحول الوسيلة إلى غاية، وينشغل الإنسان بها كغايـــة، ويلتفـــت بعيداً عن مسبب الأسباب، ومنتهى الغايات، فقد يقع الإنســـان فـــى محظـــور الإعتماد والتوكل على عمله، ورؤيته لهذا العمل كســـبب كـــاف لاســـتحقاقه النجاة. وفى الحديث أن الحق تبارك وتعالى يقول لرجل بعد الحســـاب يـــوم القيامة: ادخل الجنة برحمتي. فيقول الرجل: بل بعملى. فيأمر الحق جل وعلا وهو أعدل العادلين بأن توزن أعمال الرجل بنعمة البصـــر فتـــرجح نعمـــة البصر، فيقول الرجل: أدخل الجنة برحمتك يارب العالمين...

---

١) فى الصحيحين

٢) تيسير صحيح البخارى [١٩٧٥] عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

وهنا نستطيع أن نفهم معنى قوله جل شأنه:

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1]،

كما نستطيع أن نعى حديث رسول الله ﷺ : «لايدخل أحدكم الجنـــة بعملـــه. قالوا: ولا أنت يارسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمـــدنى الله برحمتـــه»[2]. ألست تستعين بنعم الله من حواس، وجوارح، وإدراك، وفهم، وذكاء، وعافية، ومواهب فى إنجاز العمل؟.

العبودية الحقة لله ولى النعم تستصغر كل مايمكن أن يقدمه الإنسان إلى الله، ولايكبر فى عينها ماتفعله من أجل الحبيب، بل إنها لاترى فى الأساس إلا التقصير فى جنب الله، لذلك يقول ابن عطاء الله فى حكمه «نظرك إلى العمل، من علامة الزلل». أى أن رؤيتك وتذكرك إنك قد قدمت شيئاً، هى فى حقيقة الأمر بداية الزلل فى العلاقة مع المحبوب.

سئل أحد الصوفية: ما دليل قبول العمل؟ قال: أن تنساه!!! قيل له: كيف ذلك؟ قال: ألم تسمع إلى قول الله تعالى:

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾[3].

كيف تذكر شيئاً قد رفع من الأرض؟!!.

---

١) (٩٦) الصافات.

٢) مسند الإمام أحمد، حديث ٧٤٣٠.

٣) (١٠) فاطر.

خاتمة

في الحوار الذى دار بين سيدنا موسى عليه السلام ومعه هارون من ناحية، وبين فرعون من ناحية أخرى، سألهما فرعون قائلاً في النص القرآني:

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[1].

وقلنا أن المواهب التى أعطيت للإنسان أعطيت له من أجل العمل، وأن الثروات التى تذخر بها الطبيعة لا تظهر إلا من خلال العمل، أو أن العمل هو المقابل الذى يقدمه الإنسان الفرد لقاء ما أعطى من مواهب وإمكانات، ولقاء ما شحنت به الطبيعة من نعم وكنوز وثروات وطاقات، بالتالى فمواهب الإنسان وقدراته هى معنى

﴿ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾،

والسعى والعمل واستخراج المكنون هى معنى «ثم هدى» وتصبح الخلاصة كما يلى:

---

١) (٤٩-٥٠) طه.

رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ

الواجب الواجب

↓

كشف الطاقات والإمكانات والمواهب الفردية ونوعها وميولها

↓

تنمية المواهب المتوافره بالتدريب....

↓

توجيه ما سبق إلى الوجهة المناسبة

فى إطار منظومة جماعية تنصهر داخلها المواهب الفردية

لتحقيق صالح الفرد والمجموع

↓

بذل الجهد والسعة

↓

كشف المخبوء من ثروات الطبيعة وكنوزها وطاقاتها «بالعمل»

من خلال هذه المواهب وإعمالاً لسنة تسخير الطبيعة للإنسان

↓

إضافة القيمة لمذخور الطبيعة وكنوزها وطاقاتها «بالعمل»

والمشاركة والمساهمة والإضافة للمسيرة الحضارية والتاريخية

للإنسان على الأرض

↓

ماسبق يؤدى إلى التمكين فى الأرض

↓

التمكين هو الطريق إلى إدخال قضاء الله كما يحب ويرضى فى مسيرة الإنسان التاريخية والحضارية والتحول بها إلى مسار تكاملى تصاعدى تطورى وصولاً إلى الإنسان الربانى

↓

↓

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾[1].

↓

وفى النهاية يحدث اللقاء مع الحق تبارك وتعالى حيث أن

﴿ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾

هذا هو العمل، وهذا هو الدور المطلوب من المسلم فى رحلة حياته من الحمأ المسنون وصولاً إلى «يحبهم ويحبونه».

انتهى

نشأت جعفر

---

١) (٤١) الحج.



المحتويات

الموضـــــــــــــــــــوع	الصفحة